الفصل الأول

آثار الحملات العسكرية المغولية على المدن

١- الهجرة:

أ- النزوح من المدن إلى المدن.

تعرضت بلاد الشام لعدة حملات عسكرية مغولية أدت إلى نتائج خطيرة على الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية فعلى الصعيد الاجتماعي أدت إلى تحركات سكانية باتجاه المدن الرئيسية في بلاد الشام ومصر، فقد استقبلت مدن بلاد الشام موجات متعاقبة من النازحين أسمتها المصادر «الجفلة» تعبيراً عن هروب سكان المدن والقرى منها عند حدوث الهجوم المغولي أو حتى عند سماع أخبار اقترابه منها. لكنني آثرت استخدام كلمة «النزوح» للتعبير عن هروب سكان مدن بلاد الشام لمدن أخرى ضمنها، لأن كل هؤلاء عادوا لمدنهم بمجرد رحيل المغول عنها واستقرار أوضاعها، واستخدمت كلمة الهجرة للتعبير عن رحيل بعض الأفراد من بلاد الشام لمصر لأن قسماً كبيراً من هؤلاء استقروا في مصر وتابعوا حياتهم حتى ماتوا فيها.

وكانت المدن الكبرى في بلاد الشام كدمشق وغيرها ملاذاً للمنكوبين والمهاجرين من العراق والجزيرة والأناضول الذين حملوا معهم خبرات إدارية وتجارية ممتازة وحرفاً فنية، فكان من بينهم عدد من الأساتذة والعلماء الذين ساعدوا على ازدهار قرن من التعليم الإسلامي المتميز في المنطقة. وكانت مدن الشام ممراً لعبور هجرات مغولية جماعية أحياناً وفردية أحياناً أخرى إلى مصر، كما كانت مناطق لاستقرارهم في أحيان أخرى، وقد تسلم بعضهم مناصب سياسية وإدارية، ووصلوا إلى مراتب عليا في سلك الجيش، ولا ندري فيما إذا اندمج هؤلاء في المجتمع فيما بعد[1].

١- السبكي: طبقات، ج ٥، ص ١٦٨-١٣٥-٢٤٢- ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج ١، ورقة ٦٠١- النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٧٥- لابيدوس: مدن الشام، ص ٤٥.

وبما أن تحركات النازحين كانت من الشمال إلى الجنوب فلا بد من أن تحظى دمشق بالعدد الأكبر منهم لأنها المعقل الحصين، والموقع الهام القريب من مصر مركز سلاطين المماليك. وقد تلاها في الأهمية حلب وبقية مدن الشام.

بدأت أولى التحركات السكانية سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م، حين نزح جل أهل حلب عن المدينة عندما نزل المغول على آمد ونزلوا حران واستولوا عليها، إذ ساهمت هذه الأنباء في التقدم السريع للمغول باتجاه المدينة[١].

وبعد استيلاء هولاكو على حران سير ابنه أشموط[٢] سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨م إلى بلاد الشام وأمره بالسيطرة على البلاد كلها، فوصل أشموط إلى نهر الجوز وتل باشر، ووصل الخبر إلى حلب من البيرة، وكان نائب السلطنة بها المعظم توران شاه بن الناصر يوسف فنزح الناس إلى جهة دمشق وعظم الخطب.

وقد تناقضت المصادر في ذلك، فبعضها ذكر أنه لم ينزح أحد في هذه السنة كالمؤرخ ابن كثير، وبعضها الآخر ذكر أن أهلها نزحوا باتجاه دمشق. وربما يعود سبب هذه التحركات السكانية إلى خوف الناس مما سمعوه عن المغول وأفعالهم التي ارتكبوها في بلاد فارس والعراق وغيرها من المناطق التي استولوا عليها. ومن المؤكد أن النازحين من المدن لم يكونوا من الفقراء بل من التجار أو الصناع أو العلماء أو الأدباء وذلك حفاظاً على ثرواتهم من استيلاء المغول عليها. وعند سماع أهل دمشق باقتراب هولاكو من حلب باعوا بضائعهم بأبخس الأثمان، وهاجروا بجميع الاتجاهات ونحو كافة المدن وفي أثناء هروبهم هلك خلق كثير[٣].

ونزح أهل حلب مرة أخرى نحو الجنوب اثر مقتل الحامية المبعوثة من الملك السعيد علاء الدين على البيرة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م، ونتيجة لانخفاض الروح المعنوية نزح أهل بالس عن مدينتهم وتفرقوا في البلاد ولم يعودوا إليها[٤].

وبينما قدم بعض سكان حماة الطعام والمؤن للمغول مداراة لهم، هرب بعضهم الآخر إلى

١- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٩- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٢٢٤-٥٩١ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤١٠- ابن تغري بردي: النجوم/ ج ٧، ص ٥٤-٧٤-٧٥.

٢- اشموط في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: وسموط بدون الف عند أبي الفداء، وفي عقد الجمان أشموط واسموط.

٣- أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ١٩٩- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢١٥- ابن خطيب الناصرية، المصدر نفسه، ج ٢ ورقة ٤١٤- الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٢٣٨- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص٤٢٠ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص٧٤-٧٥

٤- اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٤- أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٢٠٣- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ١٠٥- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٥٩- عاشور: العلاقات السياسية، ص ٦٦.

دمشق خوفاً من العدو المغولي[1].

واضطربت الأوضاع كثيراً في دمشق وساءت حيث امتلأت المدينة بالنازحين من المناطق الشمالية والوسطى. وانخفضت الروح المعنوية في المدينة، فخرج الأهالي من مسلمين وأهل ذمة من المدينة بأولادهم ونسائهم إلى صور خوفاً من المغول، وقد وصف المؤرخون حالتها بقولهم «وكأن القيامة قامت» بينما نزح قسم آخر باتجاه البراري والحصون فهلك بعضهم بسبب البرد القارس لأن الوقت كان شتاء[2].

وفي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م احتضنت دمشق النازحين من الشمال ومن حلب، حيث قدم هؤلاء بعد هجوم المغول على مدينتهم، ونزلوا على حماة، فانضم بعض سكانها إليهم، وتوجهوا جميعاً نحو دمشق[3].

وتدخلت السلطات في بعض الأحيان وأخلت المدن من السكان كما حدث سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١م، فقد أصدر الظاهر بيبرس مرسوماً بإخلاء مدينة دمشق من سكانها لما علم باقتراب المغول، ولا ندري ما غايته من ذلك؟ هل الخوف من الغزاة؟ أم خطة حربية وضعها الظاهر وقصد من ورائها جعل دمشق مسرحاً للصراع العسكري المملوكي المغولي عند خلوها من السكان بالإضافة إلى التخفيف من خوف أهل المدينة وتبيان المتآمرين مع العدو؟ وقد ذكرت المصادر أن قسماً كبيراً منهم رحل إلى مصر، حيث أمر الظاهر بحراستهم من ولاية إلى ولاية حتى باب القاهرة، كما أمر ألا يؤخذ منهم خفارة، ولا زكاة، ولا يتعرض أحد إلى ما معهم من أمتعة وقماش، ولا يفتشون، وقد وصلوا إلى القاهرة سالمين[4].

إن إخلاء مدينة دمشق من أهلها أمر صعب التحقيق لأن عدد سكانها كبير جداً، ناهيك عن وجود عدد كبير من النازحين فيها، وليس من المعقول أن تستوعبهم أية مدينة مروا بها. وربما أمر الظاهر بإخلاء أصحاب الأموال والأعيان والعلماء وأصحاب المهن لاحتياج مصر لأموالهم وعلمهم وخبرتهم، ولا أظن أن النزوح شمل الفقراء المعدمين.

ومن الجدير بالذكر أنه كان كلما ترامى إلى مسامع أهل المدن وأهل الثروات والأعيان

١- عاشور: العلاقات، ص ٦٨.

٢- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ٥٠- أبو شامة: تراجم، ص ٢٠٣- أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٢٠ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٣.

٣- أبو شامة: تراجم، ص ٢١١- اليونيني: ذيل مرآة، ج ٢، ص ٨٩- أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٢٠٩-٢١٠.

٤- أبو شامة: تراجم، ص ٢١٩ – ابن عبد الظاهر: الروض، ص ١٣٦- - اليونيني: ذيل مرآة، ج ١، ص ٤٨٧-٤٨٨ – النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٦٣ – ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٢٣٥ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٧٣.

وأكابر التجار قدوم المغول كانوا ينزحون عنها خوفاً من نهب وسلب أموالهم، والبطش بهم، ولذلك نادراً ما شاركت هذه الفئة في القتال ضد العدو. وإذا ما حصل فإنه بتحريض من الهيئات الدينية أو بضغط من رجال السلطة. وبدأ النزوح من دمشق سنة ٦٦٩ هـ - ٣٧٠ هـ / ١٢٧٠-١٢٧١م لما أغار العدو على حارم والروج، وكان لهذه التحركات انعكاسات اقتصادية سلبية على المدن، فقد نتج عنها ارتفاع في الأسعار، حيث بلغت قيمة الجمل ألف درهم، وأجرته على مصر مائتي درهم[1].

وأثناء ورود خبر وصول المغول إلى أطراف حلب سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩م خرج جل سكانها مع مجموعة من جندها باتجاه حمص وحماة، وتركوا الغلال والأمتعة. إلا أن هذه التحركات لم تستمر طويلاً، فبمجرد رحيل المغول عن المنطقة يرجع من نزح ويمارس أعماله اليومية، وفي بعض الأحيان كان للسلطة دور في إعادة النازحين إلى مدنهم لممارسة ما كانوا يقومون به إلا من فضل البقاء من السكان بعيداً عن مدينته، وكان أكثر هؤلاء أصحاب المهن كالعلماء أو الشيوخ الذين تتاح لهم فرص في مدن غير مدينتهم، وطبيعي أن يتمتع هؤلاء بحياة أفضل إذا ما فضلوا الاستقرار.

وتبرز مسألة هامة لا بد من إثارة الأسئلة حولها وهي لماذا لم تحصن السلطات المملوكية المدن بتحصينات دفاعية قوية تجعلها قادرة على صد أي هجوم مغولي؟ هل كانت الدولة تعاني من نقص في الخزينة المالية، أم كانت هنالك أسباب أخرى منعتها من القيام بذلك؟ لا أدري ما هي الصعوبات التي جعلت السلطات المملوكية تقف عاجزة عن الحد من نزوح سكان المدن عندما كان يترامى إلى مسامعها نبأ قدوم المغول، وإذا كانت الأسباب الاقتصادية هي المانع من أين أمنت لهؤلاء الطعام وأمكنة الإقامة؟ على كل إن السؤال يشكل النصف الأساسي من العلم.

وفي سنة ٦٧٨-٦٧٩ هـ / ١٢٧٩-١٢٨٠م وصل إلى دمشق وبعلبك عدد كبير من النازحين من مختلف مدن الشام من حلب وما والاها من حمص وحماة والمناطق الشمالية خوفاً من المغول الذين نزلوا على الدربساك[2]، وعين تاب وبغراس[3]، ولم يبق بالمدن إلا من عجز عن السفر،

١- ابن عبد الظاهر: الروض، ص٣٦٩- أبو الفداء: ج٤، ص٨- النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٨٧ - ابن كثير: ج١٣، ص ٢٦١.

٢- الدربساك: منطقة ذات قلعة مرتفعة، لها أعين وبساتين، من شرقيها مروج متسعة حسنة كثيرة العشب، يمر فيها النهر الأسود من بغراس في الشمال بميله إلى الشرق وبينهما نحو عشرة أميال. ينظر عماد الدين إسماعيل: تقويم البلدان ص٢٦١

٣- بغراس: وهي ذات قلعة حصينة وهي في الجبل المطل على عمق حارم، وحارم من جهة الشرق، وبغراس من جهة الجنوب من دربساك، وبينهما بعض مرحلة، أبو الفداء: تقويم، ص ٢٥٩.

فخلت حلب من سكانها حيث التحقوا بحماة وحمص، وعزم كثير من أهل دمشق والبلاد الشامية على التوجه إلى الديار المصرية ليقينهم بان الأمير سنقر الأشقر سينضم إلى المغول، وبالتالي ستتحول المنطقة إلى جحيم[1]. وتدل عمليات الإخلاء السريعة للمدن على مساعدة السلطات للأهالي في عملية النزوح.

ولم تذكر المصادر أحوال هؤلاء النازحين في المدن التي قدموا إليها، عن كسائهم، وغذائهم، ومساكنهم، ولكن يمكن القول بأن السلطات ربما قدمت لهم بعض المساعدات وأمنت لهم سبل العيش خوفاً من حصول المجاعات والأوبئة وانعكاسات أخرى على المجتمع ككل

وقد كانت الأمكنة الدينية مأوى للنازحين عند قدوم الغزاة وذلك لأنها لم تكن لتجد بسهولة مأوى آخر، أو بغية التقرب من الله سبحانه وتعالى والدعاء له، او نتيجة للأمان الذي تمتعت به الأماكن الدينية في بعض الأحيان. ففي سنة ٦٨٠ هـ /١٢٨١م وعندما علم سكان الشام بقدوم ابغا بن هولاكو إلى الرحبة خاف السكان واضطربوا، وتحركوا باتجاهات مختلفة، فنزح أهل حلب وجندها إلى حماة وحمص، وتركوا أمتعتهم وحواصلهم وغلالهم، وممن نزح في هذه المرة الأدباء والعلماء وأصحاب الحرف والقضاة كتاج الدين أبو زكريا يحيى بن عفيف الكردي (٦٨٠هـ /١٢٨١ م)، بينما التجأ سكان دمشق إلى الجوامع بما في ذلك الشيوخ والأطفال وأخرجوا المصحف العثماني وغيره على الرؤوس، وخرج الخطباء والقراء والمؤذنون إلى المصلى ظاهر دمشق يسألون الله الظفر والنصر. ولما انتصر المسلمون على المغول في معركة وادي الخازندار عاد من نزح عن بلاده وأوطانه واستقر فيها[2].

وخلت بعض البقاع في بلاد الشام من سكانها نتيجة للأعمال الحربية، إذ هجرها سكانها ريثما تميل الأحوال إلى الاستقرار والهدوء، وهذا ما حصل في وادي التيم، فقد هجره أهله والتجأوا إلى جبل لبنان ينشدون الأمان والاستقرار، ولم يعد فيه بلد عامر سوى حاصبيا[3].

وأخلى الغزاة المغول بعض المدن من سكانها بالقوة، وهذا ما حصل لسكان (رصافة الرقة) فقد قام المغول سنة ٦٨٨ هـ /١٢٨٩م بإخلاء أهلها عنها، فسكنوا حماة وسلمية ولم

١- ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٧٦- المنصوري: التحفة، ص ٩٥- ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٢٩١-٢٩٢- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ق ٤، ص ٨٥٥ – ابن الفرات: تاريخ، ج ٧، ص ١٨٦- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٨٢ – العيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ٢٥٤ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٢٩٨.

٢- ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٢٩٤-٢٩٥- ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٦٤- ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢١٣-٢١٤ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٩١- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٣٠٢-٣٠٥.

٣- كرد علي: خطط ، ج ٢، ص ١٢١.

يبق بها أحد[1].

وأجبرت التهديدات المغولية السكان على النزوح باتجاه دمشق، وهذا ما حصل سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦م كذلك سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٨م، وما أن وصلوا إليها حتى وجدوا أهلها مستعدين للفرار معهم، لكن أعضاء السلطة تدخلوا وأصدروا أمراً مفاده أن من خرج منهم فهم في حل من ماله ودمه فتوقف أهل دمشق عن الهجرة[2].

وانعكست هذه التحركات السكانية بشكل سلبي على المجتمع العربي الإسلامي، فعلى الصعيد العائلي حصل تفكك أسري، فالعائلة تفرقت في عدة أماكن وربما التقى أفرادها فيما بعد، وربما لم يلتقوا. ففي سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩م وردت إلى دمشق قفول كثيرة من النازحين من حلب وحماة هاربين من المغول، ولما استوطن هؤلاء دمشق أخذ أهلها بالنزوح منها إلى القرى المجاورة، وإلى القلعة، وآخرون توجهوا نحو القدس والخليل، ومنهم من نزح باتجاه قلعة صفد وعمت الفوضى وأصبح الناس كأنهم يساقون إلى المحشر، فلا يلتفت الأخ إلى أخيه، ولا الأب إلى ابنه، ولا المملوك إلى سيده[3].

وعند سماع أهل بلاد الشام بتوجه غازان للمنطقة سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠م تفرقوا في السواحل، وقصدوا الحصون وتشتت أغلبهم من الفرات إلى غزة، وتجمعت قوافل النازحين من حلب وغيرها في دمشق، وعندما أرادت السلطة إخلاء المدينة خوفاً من غازان مر والي دمشق في الأسواق، وأخذ يصيح إلى متى قعودكم، من استطاع السفر فليسافر، وأغلق البلد أمام النازحين من المناطق الأخرى، وازدحم الناس بالقلعة، واقتسموا طرقها بالبشر، وسافر القوي وبقي الضعيف الذي عجز عن الحركة، وسافر أعيان البلد، وخرج الكثير من الناس خفافاً وثقالاً بأهاليهم وأولادهم، وجعلوا يحملون الصغار في الوحل الشديد، وقد خرج الكثير منهم على دواب ضعفت من قلة العلف مع كثرة الأمطار والبرد الشديد والجوع[4].

١- ابن الشحنة: الدر، ص ١٦١.

٢- اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ٢٣١-٢٣٢- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٥٧.

٣- المنصوري: التحفة، ص ١٥٧ – الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٣٩١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٦- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١ ق٣، ص ٨٨٥ – العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص٨-٢٦- عاشور: المرجع نفسه، ص ١٤٦- شهاب: الدولة الايلخانية، ص ١٦٥- فهمي: المرجع نفسه، ص ٢٠٢.

٤- المنصوري: المصدر نفسه، ص ١٦٠ – ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر، ص ٤٧- الذهبي: دول ج ٢، ص ٢٠٥ – العبر، ج ٥، ص ٤٠٩- اليافعي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٣٤- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٥ – المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق٣، ص ٩٠٩- ابن تغري بردي: النجوم ج ٨، ص ١٣١-١٣٢ – عاشور: المرجع نفسه، ص ١٦٠.

وكان أهل دمشق آخر سكان بلاد الشام الذين تركوا مدينتهم ونزحوا إلى المناطق المجاورة، ففي سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م ترك بعض أهل دمشق المدينة ولجؤوا إلى الجبال المجاورة بسبب قدوم النازحين من حلب وحماة وحمص هاربين من الغزاة بعد أن سمعوا بعبورهم للفرات، والذين ظلوا في المدينة لجؤوا إلى القلعة وظلوا فيها حتى انتهت وقعة شقحب في هذه السنة، وتمخض عنها انتصار المسلمين في المعركة انتصاراً حاسماً[١].

أدت هذه التحركات إلى نتائج سلبية على الصعيد الاقتصادي، فقد ازداد غلاء الأسعار والركود في الحركة التجارية، كما أدت إلى نزوح رؤوس الأموال إلى الخارج من ناحية أخرى مما قاد بالنتيجة إلى تجميد الاستثمارات الزراعية والصناعية والتجارية، وإلى تخلخل التوزع الديمغرافي لسكان المنطقة أيضاً، فازدحمت مدن بالسكان على حساب أخرى، الأمر الذي كان يؤدي في بعض الأحيان إلى أوبئة ومجاعات إذا ما تعرضت المدن للحصار، كما اكتسبت دمشق أهمية اقتصادية واجتماعية على مدن الشام كافة ذلك أنها تلقت كافة النازحين من مدن الشام كحمص وحلب وهذا ما حصل سنة ٧١٢ هـ /١٣١٢م عندما حاصر خربنده بن أرغون الرحبة، حتى أن مدينة حمص أخليت من سكانها[٢].

ولم تشهد بلاد الشام تحركات سكانية جماعية كبيرة بعد وقعة شقحب سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م حتى قدوم تيمورلنك سنة ٨٠٣ هـ /١٤٠٠م، وكانت حملة تيمورلنك على المنطقة هي الكارثة الأسوأ في تاريخها، فقد شهدت مدن المنطقة تحركات كثيرة وكبيرة، فكلما دخل تيمورلنك مدينة نزح جل سكانها، فقد نزح سكان عينتاب إلى حلب، ولما سمع سكان حلب بتغلبه على البلاد الشمالية اضطربوا، ونقلو أموالهم إلى القلعة، ونزح قسم منهم إلى المناطق القريبة، فغلت أسعار الجمال، وتجهز نائب حلب بعسكرها ومن انضاف إليهم من العرب والتركمان للقتال. وعند سماع أهل دمشق بنبأ نزوله على بهسنا أخذوا في الرحيل عنها، فتدخلت السلطة هذه المرة ومنعت الناس من الرحيل، ويمكن أن يكون سبب ذلك خوفها من وصول تيمورلنك إلى دمشق، واحتفاظها بقوة بشرية كبيرة لمساعدتها على صد الهجوم، وعند ورود الخبر الأكيد بسقوط حلب نودي بالناس للرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة للاستعداد لقتال العدو، فورد النازحون من حماة، مما زاد خوف أهل دمشق، وهموا

١- الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢٠٨- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٧٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٣ – طه بدر: مغول إيران، ص ١٠٨-١٠٩- عاشور: المرجع نفسه، ص ١٦٦.

٢- ابن أيبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ٢٥٦- أبو الفداء: المختصر، ج ٤، ص ٦٩- الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢١٨ – ابن الوردي: تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٧٣- ابن حبيب: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٥.

بالجلاء عنها فمنعوا من ذلك، وقررت السلطة نهب من أراد الرحيل، وتجمعت قوافل النازحين بها من سكان حلب وحماة وحمص إضافة إلى أهل القرى من جهات الغوطة وأهل بعلبك بنسائهم ومواشيهم بسبب استيلاء تيمورلنك على مدينتهم، إضافة إلى وادي بردى وسكان الزبداني، ولما وصل المغول إلى حمص وتيقن أهل دمشق من ذلك رحلوا عنها[1].

لقد ضمت هذه التحركات بين جناحيها التجار العابرين والحجاج، والأساتذة، والشيوخ الذين تمتعوا بوسائل العيش والأصدقاء والاتصالات، كما اكتظت المدن نتيجة هذه الهجرات بأعداد هائلة من المتسولين والصوفية والمعوزين، وسكن المرضى والعجزة المعوقون في الشوارع والمساجد، فادت هجرة الشيوخ والأساتذة إلى خسارة المدن للعمل وإلى تأخر التقدم الثقافي والحضاري[2].

وقد نال بعض النازحين مكانة اجتماعية مرموقة في المنطقة التي نزحوا إليها، إضافة إلى انفتاح فرص العمل أمامهم، فأدت هذه العوامل إلى استقرار بعضهم في المناطق التي نزحوا إليها، ونذكر منهم على سبيل المثال طيبغا واسمه الشريفي عتيق الشريف شهاب الدين نقيب الأشراف بحلب، هاجر إلى دمشق أثناء وقعة تيمورلنك، وأقام بها وحدث، وعلم الخط إلى أن توفي سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥م، كذلك اسحق بن أبي بكر بن إبراهيم بن النحاس من حلب ولد سنة ثلاث أو أربع وأربعين وستمائة، رحل إلى دمشق لما استولى المغول على حلب، وعمل عدة أعمال منها أنه اقام فقيهاً بالمدارس بصحن من الزاوية، كما انه رتب سمعاً بدار الحديث الأشرفية بعد ابن مشرف، توفي سنة ٧١٠هـ[3].

غير أن بعضهم الآخر عاد إلى منطقته الأساسية واستقر بها منهم إسماعيل بن علي بن محمد أبو الخير البقاعي الدمشقي كان يشتغل بالعلم، وله نظم حسن، فر من تيمور سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م إلى طرابلس وأقام بها حتى سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢م ثم عاد إلى دمشق وظل بها حتى توفي سنة سبع وثمانمائة، إضافة إلى محمد بن محمد بن علم الدين العيني القفصي الذي نزح إلى قرى جبل سمعان، ولما رحل المغول عن بلاد الشام عاد إلى ولايته في حلب، توفي سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢م وغيره كثير لا سبيل لذكرهم كلهم[4].

١- المقريزي: السلوك، ج ٣، ث ٣، ص ١٠٣١-١٠٣٤-١٠٣٦-١٠٣٨- العسقلاني: أنباء، ج ٤، ص ١٩٢- - ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص ٢٢٧-٢٣٨- ابن إياس: بدائع، ج ١، ق ٢، ص ٢٢٧-٢٣٨ – لامب (هارولد): تيمورلنك، بيروت، المطبعة الوطنية، الطبعة الأولى، ١٣٩٤، ص ١٢٣-١٢٤- كرد علي: خطط، ج ٢، ص ١٧٠- العلبي: تيمور، ص ١٢٥.

٢- العسقلاني: أنباء، ج ٥، ص ١٦٥- السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٣٠٣- ج ٤، ص ١٣- لابيدوس: مدن، ص ١٤١.

٣- ابن خطيب الناصرية: الدر، ج ١، ورقة ٢٢٤- السخاوي: الضوء، ج ٤، ص ١٣.

٤- ابن شداد: تاريخ الظاهر، ص ٤٢- ابن خطيب الناصرية: الدر، ج ٢، ورقة ٢٣٢- العسقلاني: أنباء، ج ٥، ص ١٢٢- السخاوي:

صفوة القول إن المناطق الجنوبية والشمالية تعرضت أكثر من مناطق الشام الأخرى للاجتياحات العسكرية المغولية، وقد تركزت الهجمات على حلب ودمشق باعتبارها المدن الهامة في المنطقة، أما بالنسبة للكرك والشوبك فلم تتعرض لهذه الحملات ولم يتأثر سكانها بشيء من التحركات السكانية.

وقد نعمت القدس في هذه الفترة بشيء من الازدهار والاستقرار حيث وردت إليها أعداد من المهاجرين من العراق والبلاد الشرقية تركوا بلادهم أمام الضغط المغولي، وانتقلوا إلى حماة وحلب ودمشق والقدس. مما أدى إلى زيادة في عدد سكانها وصل إلى ٤٠,٠٠٠ نسمة لكن غزوة تيمورلنك خلخلت الديمغرافية السكانية، فقد أخذت الديمغرافية تتدنى وقد ذكر بعض المؤرخين في ذلك أن القدس إذا أقيمت الصلاة فيها لا يصلي خلف الإمام سوى رجلين[1].

والجدير بالذكر أن هذه التحركات نجم عنها آثار متعددة على الصعد الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية، فعلى الصعيد الاجتماعي أدت إلى التفكك الأسري، فقد ساهمت الفوضى التي رافقت عمليات النزوح أحياناً إلى توزع العائلة الواحدة في عدة أماكن، إضافة إلى انتشار المجاعات والأوبئة، وازدياد اللجوء إلى الزوايا والأربطة باعتبارها تقدم العيش الضروري لهم، مما أدى فيما بعد إلى كثرة العاطلين عن العمل في هذه الزوايا، وقيامهم بأعمال السلب والنهب واللصوصية وغيرها من الأعمال الأخرى.

وعلى الصعيد السياسي أدت هذه التحركات إلى إزالة مدن بكاملها كرصافة الرقة. وعلى الصعيد الاقتصادي أدت إلى ركود في النواحي الاقتصادية، حيث كان السكان على يقين بأن ثرواتهم ستصادر من قبل الغزاة، لذلك ربما أحجموا عن اقتناء النفائس وفضلوا الإبقاء على الثروات المالية لسهولة نقلها عند نزوحهم. كما سببت هذه التحركات ارتفاعاً في أسعار المواد الغذائية الضرورية وأسعار وسائل النقل، ونزوح المهرة من الحرفيين مما أدى إلى انخفاض جودة المصنوعات.

ب- الهجرة من بلاد الشام إلى مصر:

- أضحت دمشق مركزاً لتجمع النازحين من مختلف الجهات الشمالية، حلب، حمص، حماة، أو الشرقية كالجزيرة ومدنها كالرها وماردين وعينتاب وحران. وكان أكثر هؤلاء النازحين يسيرون منها باتجاه مصر بعد أن يأخذوا قسطاً من الراحة.

الضوء، ج ٢، ص ٣٠٣- ج ١٠، ص ١٣.

١- المقريزي: السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٢٢٥- غوانمة: بيت المقدس، ص ١١٧-١١٨.

وقد ارتبطت الهجرة إلى مصر بعوامل عسكرية وسياسية، فكلما سمع سكان المنطقة بقدوم حملة عسكرية مغولية كانت قوافل المهاجرين تعبر إلى مصر خوفاً على حياتهم وأموالهم وكانت هذه الهجرات تتم بشكل فردي أو جماعي.

كانت الموجة الأولى الكبيرة من المهاجرين من بلاد الشام لمصر أثر دخول هولاكو لبلاد الشام فقد هاجر قسم من سكان دمشق خوفاً من سطوة هولاكو بعد ما ترامى إلى مسامعهم ما فعله بالعراق وقد عانى هؤلاء المهاجرون كثيراً من مشقات الطريق إذ كان الزمن شتاء، فمات كثير منهم، إضافة إلى تعرض الكثيرين للنهب[1].

كما استقبلت مصر مهاجرين جدداً إثر موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ /١٢٥٩م ذلك أن المهاجرين كانوا من عامة الناس، كما كانوا من الأمراء[2].

وعند سماع أهالي دمشق سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠م بمهاجمة المغول لحلب وقتل سكانها تتابعت قوافل المهاجرين لمصر من جديد[3].

ولكن لماذا كان سكان بلاد الشام يهاجرون باتجاه مصر كلما علموا بقدوم المغول إلى بلاد الشام أو عند مهاجمتهم أي مدينة؟

من الطبيعي أن يكون لأعمال المغول الإرهابية سبب هام في هجرة هؤلاء السكان، فهذه الأعمال كانت تلقي الخوف في النفوس، وكانت تتمثل بالقتل والسلب والنهب والاستباحة الأخلاقية، والمعروف عن المغول أنهم لم يرحموا أي شعب هاجموا بلاده. فخططهم كانت تهدف أما إلى الدخول للمدن مباشرة بعد معارك عسكرية بينهم وبين السكان، أو عن طريق منح سكان المدن الأمان لتسهيل دخولهم.

ساد بلاد الشام استقرار نسبي بعد ذلك حتى قدوم غازان إلى المنطقة سنة ٦٩٨-٦٩٩ هـ / ١٢٩٨-١٢٩٩م، فبقدومه شعر السكان بالخوف وتوجه الكثير من أهل دمشق إلى مصر ومعهم التركمان والعرب والعجم. ومن كافة مدن الشام كحلب وحمص والساحل وكان المهاجرون من أجناس مختلفة[4].

وبينما كان أهل الشام يضمدون جراحهم ويلمون شتاتهم إذ بالأخبار ترد بأن غازان عازم

١- الذهبي: دول، ج ٢، ص ١٦١- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤١٦- العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٢١٧.

٢- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٧٩- اليونيني: ذيل مرآة، ج ١، ص ٣٤٩.

٣- اليونيني: ذيل مرآة، ج ٤، ص ٤٥- ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٢٩٢- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٨٥٥.

٤- المقريزي: المقفى، ج ٧، ص ١٧٤- العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ٧٢ – ابن تغري بردي: النجوم ج ٨، ص ١٢٣.

على التوجه لدمشق، فشرع سكان دمشق بالهرب إلى مصر والشوبك والكرك ليقينهم بتوجه غازان إليهم حين تحين الفرصة له، لكن المشايخ ومنهم تقي الدين بن تيمية تدخلوا لتهدئة النفوس وحث الأهالي على الجهاد، لكن هذا لم يمنع أهل دمشق من الرحيل باتجاه مصر فانتشروا في البراري والقفار، كما نزح الكثير من العلماء والمفكرين أمثال رشيد الدين إسماعيل بن عثمان القرشي الدمشقي وغيره.

لكن غازان أخر قدومه لدمشق بسبب الظروف الجوية السيئة، وبسبب قلة المؤن، فنجى الله أهل الشام من كارثة محققة[1].

بعدها استقرت الأمور نسبياً في المنطقة إلى حين قدوم الغازي تيمورلنك ومهاجمته للمناطق الشمالية فهاجر قسم من الأهالي الخائفين باتجاه مصر، وتعرض هؤلاء لغارات الأعراب في الطريق. وممن هاجر من العلماء في هذه الوقعة كمال الدين عمر بن العديم حيث كان معتقلاً بقلعة حلب، فلما أفرج عنه تيمورلنك خرج إلى اريحا ثم إلى مصر وتولى هناك عدة مناصب، وعلي بن محمد بن عباس البعلي الدمشقي المعروف بابن اللحام، وأحمد بن محمد بن قماقم الدمشقي الفقاعي شهاب الدين كان أبوه فقاعياً فاشتغل هو بالعلم، وإبراهيم بن محمد بن هادر بن أحمد القرشي الغزي. الذي ولد سنة ٧٤٥ هـ /١٣٤٤م وسكن على شاطئ النيل (ت ٨١٠ هـ)[2].

أما الفئات التي هاجرت إلى مصر فيمكن تقسيمها لأربع فئات رئيسية:

أ- فئة الفقراء وعامة الشعب.

ب- فئة العلماء. وقد ضمت كتب التراجم والسير أسماء الكثير من العلماء والأدباء والمفكرين الذين هاجروا إلى مصر والذين قضى بعضهم نحبه في تلك الديار ولنذكر على سبيل المثال أسماء بعض من الجم الكثير الذي أورده المؤرخون:

- عبد الرحيم بن عبد الرحيم (ت ٦٧٠ هـ /١٢٧١م) تولى نظر الجامع بحلب سنة ٦٤٩ هـ /١٢٥١م، وكذلك البيمارستان واستمر إلى سنة أربع وخمسين، وفوض إليه نظر الخزانة للصحبة بدمشق،

١- ابن ايبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ٤٥- أبو الفداء: المختصر، ج ٤، ص ٤٤ – الذهبي: ذيول العبر، ص ٧٧- الصفدي: الوافي، ج ٤، ص ٣٥٨- اليافعي: مراة، ج ٤، ص ٢٥٣ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص١٤، المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ٢ ٩٠٨-٩٠٩ – المقفى، ج ٢، ٢ ٢٣٨- دهمان ولاة، ص ١١٥-١١٦.

٢- ابن خطيب الناصرية: الدر، ج٢، ورقة ١٠٤ – المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٤، ص ١٠٣٦- العسقلاني: أنباء، ج ٤، ص ٣٠١- ج٦، ص ٢٠- السخاوي: الضوء، ج ١، ص ١٣٠- ابن إياس: بدائع، ج ١، ق ٢، ص ٦١٨- العليمي: تيمورلنك ص ١٥٦- شهاب: تيمورلنك ص ٣٢٢.

وما زال بها ناظراً إلى أن خرج من دمشق إلى الديار المصرية.

- الصدر علاء الدين أبو الحسن بن الشيخ منتجب الدين محمد بن نصر الله الحلبي (ت ٦٤٧ هـ /١٢٧٥ م) هاجر إلى مصر وسكنها وأقام بها إلى سنة ٦٦٣ هـ /١٢٦٤م فطلبه المنصور صاحب حماة فتوجه إليه واستوزره.

- محمد بن غالب بن محمد بن مري نصير الدين أبو عبد الله الأنصاري كاتب الحكم بدمشق توفي بالديار المصرية.

- الشيخ أبو حامد الحسن بن عماد الدين علي بن الحافظ بهاء الدين القاسم بن الحافظ خرج من دمشق أيام الجفلة إلى مصر ولما أراد العودة مات في الشوبك (ت ٦٥٨ هـ /١٢٥٩م).

- نجم الدين البعلبكي (ت ٧٣١ هـ /١٢٣٠ م) توفي بالمدرسة الصارمية، كتب ونسخ وحصل الكتب وقرأ على الشيوخ وتوجه إلى القاهرة مهاجراً سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م.

- مروان بن نيروز بن حسن حيث كان ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق، خرج إلى حلب وأقام بها حتى وقعة المغول ضد مصر فوصلها، واستشهده قاضي قضاتها تاج الدين عبد الوهاب ابن خلف المعروف بابن بنت الأعز، ورتبه بالشارع وفوض إليه عقود الأنكحة، ولم يزل قاضياً إلى أن (ت سنة ٦٧٥ هـ /١٢٧٦ م) وانتقل معهم إلى مصر وكيل بيت المال محمد ابن الحسين بن زريق بن عيسى حيث توفي بالقاهرة سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م[١].

وفي أثناء غزوا غازان هاجر إلى مصر جماعة من أعيان دمشق كالقاضي إمام الدين الشافعي، وتاج الدين الشيرازي، وعلم الدين الصوفي وغيره حتى بقيت دمشق شاغرة ليس فيها حاكم ولا رادع سوى نائب القلعة أرجواش[٢].

ج - فئة الملوك والأمراء والأعيان وأهلهم وحاشيتهم. إذ كان الأمراء يبعثون بنسائهم وأموالهم وأولادهم إلى مصر عند اقتراب الخطر المغولي منهم وهذا ما حصل سنة ٦٥٧ هـ /١٢٥٨م[٣].

ووصل إلى مصر أهل الملك الناصر وأهل أخيه الملك الزاهر فأحسن استقبالهم الظاهر بيبرس وأمدهم ببعض النفقات والإقامات[٤].

د - فئة الجند والقادة الذين انهزموا في المعارك أمام المغول وهذا ما حصل عندما أخفق

١- أبو شامة: تراجم، ص ٢٥٩- ابن شداد: تاريخ، ص ٤٢-٤٤-١٤٦-٢١٨- الصفدي: الوافي ج ٤، ص ٣١٢- السبكي: طبقات، ج١، ص ٣٢٧- ابن خطيب الناصرية: الدر، ج ٢، ورقة ٢٣٢- النعيمي: الدارس، ج ١، ص ٣٢٧.

٢- ابن خطيب الناصرية: الدر، ج ٢، ورقة ١٢٤- العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ٢٣-٢٤- دهمان: ولاة، ص ٩١.

٣- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ٤٩.

٤- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٧٩.

الجنود المسلمون في صد تيمورلنك عن الاستيلاء على دمشق[1].

لقد سلك المهاجرون أثناء رحيلهم إلى مصر طريقين، بري، وبحري. وإذا كانت المصادر قد أوردت بأن المهاجرين الذين سلكوا الطريق البري تعرضوا لمتاعب ومشقات جمة منها غارات البدو عليهم في الطريق باعتبارهم سلكوا طرقاً جبلية كثيرة وخاصة في فلسطين وهي التي استوطن بها البدو، كما تعرضوا لظروف مناخية صعبة. فإن المصادر لم تورد أية معلومات عن المهاجرين إلى مصر بحراً. فإثر هجوم هولاكو على بلاد الشام رحل كثير من السكان باتجاه مصر، وقد عانى هؤلاء المهاجرون عن طريق البر مشقات الطريق إذ مات كثير منهم بسبب الشتاء القاسي وتعرض كثيرون منهم للنهب[2].

وعانى المهاجرون أثناء غزوة غازان من ارتفاع أجور النقل والأسعار، فقد بلغت أجرة (كراء) الحمارة إلى مصر خمسمائة درهم، وأجرة الخمار خمسمائة درهم، وثمن الجمل ألف، واضطر هؤلاء لبيع أمتعتهم وحوائجهم بأرخص الأثمان[3].

وتعرض الذين هاجروا براً إلى مصر أثناء هجوم تيمورلنك على بلاد الشام لمهاجمة البدو، فقد قاموا بسلبهم ونهبهم. أما الذين هاجروا عن طريق البحر فربما تعرضوا للنهب والسلب، ويؤكد هذا وصف أحد المؤرخين بأنهم وصلوا إلى مصر «في أسوأ حال وأنحس هيئة»[4].

عبر المهاجرون البحر الميت باتجاه يافا ثم دمياط عن طريق البحر المتوسط واتجهوا نحو القاهرة. واحتلت القاهرة الدرجة الأولى بالنسبة للمدن التي استوطن بها المهاجرون لأنها عاصمة دولة المماليك بالإضافة لاحتوائها على المراكز العلمية والأدبية والدينية في مصر. تلتها مدينة دمياط في الأهمية.

وكان معظم هؤلاء المهاجرين يبيتون في الأماكن الدينية كالترب والجوامع لكثرتهم، فالمهاجرون أثناء غزوة غازان سكن قسم منهم القرافة وجامع ابن طولون والحسينية[5].

ونستطيع القول إن السلطات المملوكية قدمت بعض المعونات لهؤلاء المهاجرين حتى استطاعوا العيش ريثما يخرج العدو من البلاد، ومن المرجح أنها ألزمت سكان المناطق التي

١- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٣٦.

٢- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤١٦.

٣- الصفدي الوافي، ج٤، ص٣٥٨- ابن كثير: البداية، ج١٤، ص١٤- ابن تغري بردي: النجوم ج٨، ص١٥٨- دهمان: ولاة، ص١١٥

٤- ابن إياس: بدائع، ج ١، ق ٢، ص ٦١٨.

٥- المقريزي: المقفى، ج ٧، ص ١٧٤- العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ٧٢- السخاوي: الضوء، ج ١، ص ٢٠٣.

أقام بها المهاجرون بتقديم المساعدة المؤقتة لهم.

أدت هذه الهجرات إلى الإخلال بالتوزع الديمغرافي للسكان في المنطقة، فقد هجر الفلاحون أرضهم وأصحاب الحرف حرفهم، والتجار تجارتهم مما أدى إلى تضرر الفعاليات الاقتصادية، إلى جانب العلماء والفقهاء. ونذكر مثالاً على ذلك علي بن داود بن جنادة شيخ العربية الذي هاجر سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م إثر سماعه بقدوم المغول فراسله بدر الدين نصحاف قائلاً له:

يا غائباً قد كنت أحب قلبه ... بسوى دمشق وأهلها لا يغلق

إن كان صدك نيل مصر عنهم ... لا غرو فهو لنا العدو الأزرق[1]

كما سببت هذه الهجرات ركوداً في معاقل العلم والثقافة مما أدى إلى خسارة بلاد الشام مكانتها الثقافية المتميزة، وأدت هذه الهجرات إلى ظهور الحرافيش (الفلاحين الذين قدموا من القرى ولجؤوا للزوايا والمساجد) وكثرة قيامهم بأعمال السلب والنهب في المدن الخالية من السكان[2]. لقد كان للهجرات أسوأ الأثر في مسيرة التقدم الحضاري للمجتمع فخلو أي منطقة من علمائها ومفكريها يجعل الظلام والتخلف والجهل يسودها.

أما بالنسبة لمصر فقد كان لهذه الهجرات أثران سلبي وإيجابي. فالأثر السلبي تجلى في أن المهاجرين شكلوا عبئاً إضافياً على السلطة المملوكية في مصر التي دفعت أحياناً نفقات إقامتهم من خزائنها، كما أدت إلى نقص بعض المواد الضرورية فأدى لارتفاع أسعار المواد المنقودة وهذا ما عاد بالضرر على السكان المحليين الذين أرهق كاهلهم فرض ضرائب جديدة لمواجهة الوضع المستجد. أما الأثر الإيجابي فيتجلى في نقل المهاجرين لعادات وطبائع اجتماعية (اللباس والطعام وعادات أخرى مثل الأفراح والأحزان)، ومن المؤكد أن المهاجرين الذين استقروا نهائياً قد اختلطوا بالمجتمع المصري وذابوا في بوتقة عاداته الاجتماعية فأدى ذلك إلى وجود صلات قربى بين أسر مصرية وأسر من بلاد الشام.

والمرجح أيضاً أنه كان في صفوف المهاجرين بعض من مهرة الصناع الحرفيين، حيث استفاد منهم المجتمع المصري في مجال البناء، والتجارة، والمهن اليدوية الأخرى. وبالتالي فإن هذه الهجرات أضافت أشياء جديدة في الحياة العلمية والفكرية والاجتماعية للمجتمع المصري[3].

١- ابن شاكر الكتبي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٦.

٢- ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ٧.

٣- المقريزي: المقفى، ج ٧، ص ٧٤- العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ٧٢.

غير أن السلاطين سرعان ما أدركوا خطورة هذه الهجرات فكانوا يقومون بإعادة المهاجرين في بعض الأحيان، والقيام بالمشاريع الإصلاحية في مناطقهم التي هاجروا منها وتأمين سبل الحياة الرغيدة، مما يحفزهم إلى العودة إلى مناطقهم، لكن سيطرة العثمانيين على المنطقة لم تعط المماليك الفرصة لإتمام أعمالهم هذه.

ج - الهجرة المغولية إلى بلاد الشام:

شهدت مدن الشام قدوم هجرات مغولية جماعية أحياناً وفردية أحياناً أخرى، وقد تعددت أسباب هذه الهجرات، فمنها السياسية المتمثلة بالصراع والحروب بين الأمراء والسلاطين، ولم تقتصر آثار هذه الحروب على المجتمع المغولي فقط، بل تعدتها لتشمل المناطق التي خضعت لهم، وترتب عليها ازدياد تجارة الرقيق، وهجرة أقوام وطوائف من الأجناس التي خضعت للمغول، أو من المغول أنفسهم.

أما الدوافع الأخرى للهجرة فهي الاقتصادية الناجمة عن طبيعة العلاقات الاقتصادية المغولية، فنتج عنها في بعض الأحيان سوء الأوضاع وبالتالي أدت إلى الغلاء والمجاعة وبالتالي الهجرة، كما أن العوامل الطبيعية وانتشار الأمراض ساهمت في ازدياد الهجرة نحو بلاد الشام.

كانت بلاد الشام ممراً لعبور هؤلاء المهاجرين إلى الأبواب السلطانية في مصر، وسمي هؤلاء باسم الوافدية أو المستأمنين، وعند وصول هؤلاء لمصر بدؤوا في الاندماج بالمجتمع، فارتبط بعضهم بالمماليك عن طريق المصاهرة، ودخل عدد آخر في خدمة المماليك والأمراء، ووصلوا إلى مراتب عليا لم يتوصل إليها بقية الطوائف كالتركمان والأكراد والبدو، لكنهم لم يتوصلوا لمكانة المماليك السلطانية الذين اشتروا بالمال، كما التحق عدد قليل منهم بفرق المماليك السلطانية والخاصية لكن ترقيتهم في سلك الجيش خضعت لقيود شديدة[1].

والباحث المتتبع لسنوات هجرتهم يلاحظ كثرتها في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، فقد وفدوا إثر معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ[2].

نتج عن الأوضاع السياسية الداخلية للإمبراطورية المغولية هجرة البعض نحو منطقة بلاد الشام، فقد سببت الحروب الطاحنة بين هولاكو وابن عمه بركة خان سنة ٦٦٠ هـ /١٢٦٢م

١- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٢٩٩- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ق ٥، ص ٨٧٩. – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨١٣ – العريني: المماليك، ص ٥٧-٥٨.

٢- الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٢٦٣-٢٦٤.

هجرة جماعة كبيرة من المغول إلى بلاد الشام، وأرسلت هذه الجماعة من بركة إلى هولاكو قبل وقوع الحرب بينهما نجدة له، ولما وقعت الحرب بينهما كتب يستدعيهم، وإذا لم يستطيعوا الحضور فعليهم اللجوء إلى السلطان المملوكي، فلما سمع السلطان بقدومهم كتب إلى النواب ببلاد الشام بإكرام الوافدين، والإحسان إليهم، وتقديم المساعدات لهم وكل ما يحتاجون إليه، وسيرت إليهم الخلع والإنعامات والسكر والأغنام والشعير ونحوه، وساروا إلى مصر، فاستقبلهم الظاهر بيبرس، وأنزلهم في دور بنيت لهم، وأكرم وفادتهم، وقدم لهم الأموال وأمر بعضهم، فدخل هؤلاء في الإسلام، ويصف المقريزي حال هؤلاء واهتمام السلطان بهم حيث قال: «وأعطى السلطان كبراءهم أمريات فمنهم من عمله أمير مائة، ومنهم دون ذلك ونزل بقيتهم من جملة البحرية وصار كل منهم من سعة الحال كالأمير في خدمته الأجناد والغلمان، وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم وكثرت نعمهم وتظاهروا بدين الإسلام فلما بلغ المغول ما فعله السلطان مع هؤلاء قدم عليه منهم جماعة وهو يقاسمهم بمزيد من الإحسان فتكاثروا بديار مصر، وتزايدت العمائر باللوق وما حوله»[1].

واجتذبت أنباء هذا الإحسان لهؤلاء قدوم جماعات أخرى مغولية، وتوافدوا على ثلاث دفعات، ففي سنة ٦٦١ هـ /١٢٦٢م قدمت الدفعة الأولى، فقد ورد البريد من حلب والبيرة بأن جماعة مستأمنة عددها ألف وثلاث مائة فارس من المغول والبهادرية وردوا إلى المنطقة، وبالطبع كانت بلاد الشام ممراً لهم ومن المحتمل أنهم تزودوا بما يحتاجونه منها أثناء مرورهم، أو أن الحكومة قد اهتمت بهم وأمنت لهم جميع ما يحتاجونه ثم اجتازوا إلى القاهرة، فأمر السلطان بعمارة مساكن لهم باللوق فنزلوها وأكرموا من جهة السلطان. وبما أن هذه الجماعات قد انخرطت مع السكان ومع الجيش، فلا بد أن يكون بعضهم قد رافق الجيش المصري لملاقاة المغول[2].

أما الدفعة الثانية فقد وفدت في نفس هذه السنة سادس ذي القعدة وكانت تضم الكثير من أعيان المجتمع المغولي مثل كرمون، أمطغية، نوكية، جبرك، قيان، ناضغية، طبشور،

١- أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٢٢٠- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ١٣٧-١٧٨- اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٩٦- ج ٢، ص ١٥٦٥- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٦٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٣٤- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٤٧٣- الرمزي: تلفيق الأخبار، ج ١، ص ٤٢٤-٤٢٩-٤٣٠ – العريني: المرجع نفسه، ص ٥٩-٦٠ عاشور: العلاقات السياسية، ص ٧٧ – عودات: تاريخ المغول، ص ٩٩.

٢- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٨٩- اليافعي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٥٩. - المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٠ – العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦٤- السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٨٠.

نبتو، صنجي، وغيرهم، واجتمعوا بمن وفد قبلهم، وقدم السلطان لهم الضيافة والإكرام كمن سبقهم، ثم وفدت الدفعة الثالثة وقد كرر السلطان معهم ما فعله مع سابقيهم وعرض عليهم دين الإسلام فاسلموا وختنوا جميعاً[1].

انضم بعض الوافدين إلى سلك الجيش، وأمروا وتسلموا مناصب سياسية وإدارية عالية كالنيابات مثلاً ثم ثاروا ضد السلطة المملوكية، فقامت السلطات بنفي هؤلاء إلى بلاد الشام، حيث وزعتهم في مختلف مناطقها ولا بد أن يكون هؤلاء قد اثروا في المناطق التي أقاموا بها وهذا ما سنلاحظه من خلال الصراع بين المماليك وبينهم. وبدأت هذه الهجرات تضعف منذ أيام الظاهر بيبرس. ولم يقدم سوى تسعة عشر فارساً مع نسائهم وأولادهم زمن السلطان قلاوون ولم يستقروا ببلاد الشام وإنما عبروا إلى مصر، كذلك قدم زمن الناصر محمد حوالي ثلاثمائة فارس، وقد أكرمهم المنصور قلاوون وأمّر بعضهم[2].

اصطحب الوافدون في أغلب الأحيان عائلاتهم، ففي سنة ٦٨٢ هـ /١٢٨٣م وصلت مجموعة تقدر بتسعة عشر رجلاً ومعهم صغارهم، كما قدمت فرقة من المغول المنطلقة ويعتقد بأنها استقرت في بلاد الشام وكانت عدتها أربعة آلاف فارس مما يغلب عليها الصفة العسكرية، وسبب هجرتهم الصراع بين السلطان أحمد وأرغون، وقد نتج عنه مقتل السلطان أحمد واستقرار الآخر في الحكم وهجرة من تحدثنا عنهم[3].

وفي سنة ٦٩٥ هـ /١٢٩٥م قدمت دفعة من الوافدية إلى بلاد الشام، وذلك في زمن السلطان كتبغا وكان مغولي الأصل، وكان هؤلاء الوافدين يدعون الأويراتية (العويراتية) وقد قدموا بصحبة طرغاي (ت ٦٩٦ هـ /١٢٩٧م) صهر هولاكو، خوفاً على حياتهم من غازان، فقد اتفق طرغاي مع بيدو على قتل كيختوين ابغا، فلما صار الملك إلى غازان خاف طرغاي على نفسه أن يقتله انتقاماً لعمه كيختو وكان مقيماً بتمانة[4]. بين بغداد والموصل، فأرسل غازان بقطع الطرقات عليهم وأرسل الأمير قطلفوا في ثمانين فارساً للقبض على طرغاي ومن معه من أكابر قبيلة الأوبرات، لكن هؤلاء استطاعوا العبور إلى بلاد الشام. وقد اختلفت الروايات في

١- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ١٨٠- اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٣٤، ج ٢، ص ١٩٥- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٨٩-٩٠- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٠١- العيني: المصدر نفسه، ص ٣٦٤.

٢- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٨٨ – ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٥- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٧٠٨- المقفى، ج ١، ص ٣٥٢- العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٢- الحريني: المماليك، ص ٦١- عاشور: العلاقات، ص ١٢٤.

٣- ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ٧، ص٦٠ - المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ق٣، ص ٢١٢ - العيني: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٥.

٤- تمانة: لم أجد لها تعريفاً في المعاجم التاريخية.

عددهم، فقد قيل إنهم ثمانية عشر ألف بيت، بينما ذكرت مصادر أخرى أنهم عشرة آلاف نفس، وتوجهوا إلى جهة الرحبة فأرسل كتبغا إلى علم الدين الدواداري بأن يتوجه إلى لقائهم، فانطلق من دمشق وتلقاهم ثم أتى بهم إلى دمشق وكان في صحبة من مقدميهم وأعيانهم مائة وثلاثة عشر فارساً، وقد خرج نائب السلطنة للقائهم، واحتفل بهم أهل دمشق وأنزلهم النائب في القصر الأبلق، ثم جاء مرسوم بأن يتوجه الأمراء من الدفعة المهاجرة إلى الأبواب السلطانية وكان عددهم نحو مائتي فارس، فارتبط بعضهم مع المماليك بعقد المصاهرة وانغمسوا في المجتمع العربي في مصر. أما العامة منهم فقد استقروا في بلاد الشام مع نسائهم وأولادهم، فأنزلوا في الساحل بين قاقون وعثليث، ومن المرجع أن تكون السلطات قد قدمت جميع احتياجات هؤلاء من حسابها الخاص[1].

أدت مبالغة كتبغا في محاباة الأويراتية إلى زوال سلطانه على يد لاجين سنة ٦٩٦ هـ /١٢٩٦م فانتقم منهم، وسجن كبراءهم في الإسكندرية ومنهم طرغاي، ولم ينج منهم إلا جماعة قليلة سكنت بالأطراف الشمالية ثم دخلت في خدمة الناصر محمد بن قلاوون أثناء مقامه بالكرك مما يدل على انتقالهم إلى بلاد الشام واستيطانهم بها، وقد شغلوا دوراً مهماً في الحياة السياسية لبلاد الشام حيث أولاهم النواب والأمراء أهمية خاصة لمكانتهم الرفيعة.

الأمر الذي حدا بالناصر محمد لاتخاذ قراره بطردهم من البلاد[2].

لقد اضطرت بلاد الشام إلى تقديم المعونة والحماية للمغول القادمين إلى أراضيها، ففي سنة ٦٩٦ هـ /١٢٩٦م لجأ إليها اسلامش بن أفاك بن ينجو وأخوه قطقطو ومن معهم هاربين من غازان، فطلب من السلطان إعانته في إحضار عائلته وأولاده، فأمر السلطان مجموعة من عساكر حلب بالمسير معه فتوجهوا نحو الشرق، وعند وصولهم إلى سيس عرف بهم الأرمن والمغول فضيقوا عليهم الدروب، وحاربوهم، فقتل من مع سلامش، وهرب هو والتجأ إلى بعض القلاع فأحضره غازان وقتله. أما أخوته فبقوا في الديار المصرية[3].

١- المنصوري: التحفة، ص ١٤٦- أبو الفداء: المختصر، ج ٤، ص ٣٣- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٢٩٦-٢٩٨-٢٩٩- ابن الجزري: المختار، ص ٣٧٥-٣٧٦- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٤ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣٤٣- ابن حبيب تذكرة ج ١، ص ١٨٥ – ابن خلدون: العبر، ج ٥، ق ٤، ص ٨٧٨- ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٠٣-٢٠٥ – ابن خطيب الناصرية:/ الدر المنتخب، ج ١، ورقة ٥٥٥- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٨١٢- العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧٨-٢٧٩-٣٠٤-٣٠٥- ابن تغري بردي: المنهل، ج٣، ص٣٨١- الطراونة: نيابة صفد، ص١٤٦- ضومط(انطوان خليل): الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، بيروت، ط١٩٨٠،١، ص٣٦-٣٧- فهمي: المرجع نفسه، ص ١٩٨.

٢- العيني: المصدر نفسه،، ج ٣، ص ٣٥٦- عاشور: مصر والشام، ص ٢٠٥- العريني: المماليك، ص ٦٢.

٣- المنصوري: المصدر نفسه، ص ١٥١- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٥٤- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١١٩-١٢٠.

وعلى الرغم من قلة الوافدين في القرن الثامن الهجري إلا أننا نلحظ استمرار قدومهم بأوقات متباعدة وأعداد أقل، فقد شهدت سنة ٧٠٣ هـ /١٣٠٣م قدوم الأمير بدر الدين جنكلي بن البابا (ت ٧٤٦ هـ) إلى المنطقة وصحبته جماعة من كبار المغول ومن جملتهم أخو سيف الدين قطلوبك، وكان جده البابا في زمن أبغا أميراً كبيراً ولقبه جمال الدين وقد عبر هؤلاء بلاد الشام إلى مصر حيث استقبلهم السلطان، وكرمهم وأمر بدر الدين بطبلخاناة وأعطاه مائة فارس وأجراه إلى المعهود من إحسانه[١].

وكانت أعداد المهاجرين قليلة لا تتجاوز المئات أو العشرات في بعض الأحيان ولم يستقروا في بلاد الشام وإنما عبروا على مصر لأن بلاد الشام كانت تابعة سياسياً لمصر في فترة البحث، وبالتالي كانت مصر مركز الحكم وهي الكفيلة بتقديم المعونات لهؤلاء المهاجرين، وهذا ما حصل سنة ٧١٧ هـ /١٣١٧م حيث قدمت جماعة بقيادة الأمير طاطاي في مائة فارس بنسائهم وأولادهم، ودخلوا القاهرة في شوال من هذه السنة[٢].

ولم تكن هذه الهجرات ترد إلى المنطقة بزعامة الرجال فقط، بل قادت النساء أحياناً طوائف المهاجرين، ففي سنة ٧٢٢ هـ /١٣٢٢م حضرت أخت الأمير بدر الدين جنكلي بن البابا من الشرق وصحبتها جماعة كثيرة إلى دمشق لكنها ماتت بعد ثلاثة أيام من قدومها، وبقي جماعتها في بلاد الشام، فلما وصل إلى مسامع السلطان نبأ وفاتها استدعى من حضر معها إلى مصر، فلما حضروا أنعم عليهم بالإنعامات لأجل خاطر الأمير جنكلي[٣].

ولم تكن الأوضاع السياسية لوحدها هي المسبب لهذه الهجرات، وإنما لعبت العوامل الطبيعية والكوارث الوبائية دوراً هاماً لهذه الهجرات، ففي سنة ٧٤١ هـ /١٣٤٨م جاءت هجرة مغولية إلى البلاد بسبب انتشار الطاعون والغلاء في الشرق، فأذن السلطان لنائب حلب أن ينزلهم بنيابته، فنفذ نائب حلب ما أمر به، وقد هاجر منهم نحو مائتي فارس إلى مصر[٤].

وقد ازدادت هجرة البالغين من المغول منذ عهد الظاهر برقوق وتعددت الأسباب المؤدية لذلك منها الطاعون الذي اصاب القبيلة الذهبية، إضافة إلى هجوم تيمورلنك على أفرادها، والحروب المستمرة بين أفراد هذه القبيلة بسبب تنازعهم على الإقطاع مما أدى إلى انقراضها

١- المنصوري: المصدر نفسه، ص ١٧٥- ابن ايبك: الدر الفاخر، ص ١١٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٩- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٣٧٠- المقريزي: المقفى الكبير، ج ٣، ص ٧٥- عاشور: العلاقات، ص ١٧٦.

٢- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٧٤- العيني: المماليك، ص ٦٢.

٣- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٧٤- العيني: المماليك، ص ٦٢.

٤- العيني: المماليك، ص ٦٣- عاشور: العلاقات، ٥ ص ١٩٩.

وهجرة البالغين من أفرادها نحو بلاد الشام[1].

سببت هذه الهجرات نتائج سلبية على المجتمع العربي، فألحقت الضرر البالغ بالدولة والسكان، فقد انتقلت الطبائع والأخلاق والعادات المغولية مع المهاجرين إلى بلاد الشام، ونجم عن تكريمهم من السلطة المملوكية وتسلمهم للمناصب السياسية العالية ازدياد غضب العامة والخاصة على السلطة المملوكية. ووقعت على عاتق السلطة المملوكية التي فرضت الضرائب على عامة الشعب لتغطية مثل هذه النفقات ومن المرجح أن تتأثر المزروعات في بلاد الشام بمرور هؤلاء المهاجرين بمناطق زراعتها. إضافة إلى مساهمتهم في ازدياد المشاكل السياسية والاقتصادية في مصر وبلاد الشام[2].

د - العناصر الوافدة على المدن:

أصبحت مدن بلاد الشام موئلاً لكثير من العناصر العربية وغير العربية، فقد وفد إليها الكثير من المناطق المجاورة وغير المجاورة وذلك بسبب الظروف السياسية خاصة المتمثلة بالغزو المغولي لمناطق المهاجرين. إضافة إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية وظروف أخرى. وكان أكثر المهاجرين إلى مدن بلاد الشام من الجزيرة الفراتية، ومن الشرق، إضافة إلى المغاربة الذين هاجروا إلى بلاد الشام ليقيموا فيها لأسباب دينية وكان استقرارهم في مدينة القدس خاصة. فعلى الرغم من الغزو المغولي المتكرر للمنطقة والذي رافقه هدم لمعظم المنشآت الدينية، بقيت القدس تتمتع بالمكانة الدينية العليا في المنطقة، وظلت منارة علمية ودينية لسكان المنطقة، والوافدين من خارج البلاد.

كما شغلت الجزيرة الفراتية دوراً هاماً في تسهيل أمور المهاجرين الأرمن، فقد كانت محطة لعبورهم إلى بلاد الشام ذلك أن أرمينية تحد الجزيرة من الشمال ومن الشمال الشرقي، وقد حددها الكثير من الجغرافيين سواء الذين سبقوا هذه الفترة أو الذين عاشوا فيها كابن حوقل، شيخ الربوة، القلقشندي، فقد ذكروا بشكل مجمل أن أرمينية منطقة يحيط بها من الغرب حدود بلاد الروم وشيء من الجزيرة، ومن جهة الجنوب بعض حدود الجزيرة وحدود العراق، ومن جهة الشرق بلاد الجيل والديلم إلى بحر الخزر.

وهاجر قسم كبير من سكان الجزيرة باتجاه مدن الشام بسبب الحروب الطاحنة بين سكانها وبين المغول، وقد ذكر المؤرخون الكثير من أسماء العلماء والأدباء الذين هاجروا

١- ضومط: المرجع نفسه، ص ٣٧.

٢- العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٥- ضومط: المرجع نفسه، ص ٣٧.

إلى المنطقة، وقد سبب هؤلاء المهاجرون حالة من عدم الاستقرار والفوضى أحياناً[1].

لقد بدا الهجوم المغولي على الجزيرة سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨م بدءاً بميافارقين وآمد وقلعة جعبر وحران والبيرة، ودام قتالهم لميافارقين سنتين استطاعوا بعدها تخريب البلد وتهجير السكان[2].

أما حران فقد قتلوا أكثر أهلها بينما هاجر القسم الباقي إلى ماردين والموصل[3]، كما تمكنوا من السيطرة على ماردين وقاموا بهدم أسوارها، وخربوا قلعة جعبر، ولم يبق بها إلا بعض البيوت، وبالتالي فإن أكثر المهاجرين اتجهوا إلى بلاد الشام وخاصة إلى المدن حيث كانت أكثر أمناً واستقراراً من بلادهم[4].

كما تلقت مدن الشام مهاجرين من البيرة التي هاجمها المغول وحاصروها على ثلاث دفعات، أحداها سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤م، وسنة ٦٧١ هـ /١٢٧٢م، وكانت الرحبة محطة لاستراحة الجيوش المغولية عند هجومهم على مدن الشام، فقد نزلوا عليها سنة ٦٨٠ هـ /١٢٨١م حين نزلها معين الدين البرواناه صاحب الروم ومن المرجح هجرة بعض سكانها باتجاه بلاد الشام، لأن الجيوش المغولية لم تحل في منطقة إلا وقام الجنود بالقتل والنهب وسفك الدماء الأمر الذي جعل الكثير يفكرون بالهجرة[5].

وظل المغول بين الحين والآخر يهاجمون الجزيرة، وكلما هاجموها هاجر أهلها إلى الشام، حتى وقت قدوم تيمورلنك الذي اجتاح قرى ومدن الجزيرة، فقد استولى على كل من نصيبين، آمد، خلاط، ماردين، الرها، عينتاب، واستولى ابنه على الجزيرة والموصل وبالتالي فإن أعداد المهاجرين زادت وقتها[6]. وكانت من بين الأسر التي هاجرت إلى المدن الشام أسرة

١- ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي): صورة الأرض، بيروت، دار الحياة، ١٩٧٩، ص ٢٩٤-٢٩٥ – ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، مقدمة الكتاب، ص ٣٩-٤٠ ابن شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ١٨٩-١٩٠- القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٥٣-٣٥٦.

٢- ابن شداد: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٢، ص ٥١٠- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٧ – العريني: المغول، ص ٢٢٤-٢٢٥ – الصياد: المغول، ص ١٩٤-١٩٥.

٣- ابن شداد: المصدر نفسه، ج ٣، ق ١، ص ٦٠-٦٢ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩١ – العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٨- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٤.

٤- ابن شداد: أعلاق، ج ٣، ص ٢، ص ١١٩-٥٦٤-٥٦٥- تاريخ، ص ٥٥-٥٦.

٥- أبو شامة: تراجم رجال، ص ٢٢٣- ابن عبد الظاهر: الروض ٢٢٥-٢٢٦-٤٠٥-٤٠٨ – ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج ١، ورقة ٣٠٥ – المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢، ص ٥٢٣.

٦- ابن صصري: الدرة المضيئة ص١٤٦- المقريزي: ج٣، ق٢، ص٨٠٢ - العسقلاني: أنباء، ج٣، ص٢٠٠-٣١٨، ج ٤، ص٢٨٢ ابن تغري بردي: المنهل: ج٤، ص١١٢-١١٣-١١٤- ابن إياس: المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص٥٩٣- ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج ٦، ص ٣٤٤.

عبد الحليم بن تيمية، فقد نزحت هذه الأسرة من حران بسبب ظلم المغول وجورهم، وكان ابن تيمية صغيراً عندما هاجر أهله، إضافة إلى هجرة الكثير من الأسر، والشخصيات التي لمعت أسماؤها في مجالات عدة كأمين الدين بن شقير، وأولاد بشر، وابن عمر الحبال الذي أقام في بعلبك[1].

ولم تقتصر العناصر التي وفدت إلى مدن بلاد الشام على سكان الجزيرة فقط، بل وفدت إليها عناصر من بلاد الشرق وكانت هذه العناصر تأتي بشكل جماعي أو إفرادي، وربما يعود سبب قدومهم إلى بلاد الشام لانعدام الاستقرار السياسي في بلادهم، وكان من أهم المناطق التي قدم منها هؤلاء الوافدون، تبريز، خلاط، بلاد العجم، العراق، واسط، تكريت، بغداد، وقد اختلطت هذه الشخصيات في المدن مع سكانها الأصليين وتابعت عملها سواء العلمي أو المهني أو السياسي كما أمر بعضهم في سلك الجيش، بينما ارتقى قسم آخر منصب الوزارة. والجدير بالقول أن أكثر الهجرات الجماعية من الشرق أهمية كانت في سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣م حيث قدمت جماعات كثيرة من شيراز ومن أمراء العراق إلى الأبواب السلطانية فاتخذوا الشام في طريقهم ممراً للعبور، وكان مقدمهم الأمير سيف الدين بكلك، وصحبتهم وشاح بن شهري، والأمير سحما الدين حسين بن فلاح أمير العراق، وقد أمر سيف الدين وأعطى إمرة طبلخاناة بأمر من السلطان بيبرس[2].

كما تلقت بلاد الشام الهجرة القادمة من الشرق سنة ٦٨٢ هـ /١٢٨٣م حيث قدم تسعة عشر وافداً بأولادهم، وقد كانت المصادر التاريخية مقلة جداً في ذكر الطرق التي عاش بها هؤلاء والمناطق التي سكنوها لذلك لم نعثر على أي أثر سوى عن هجرتهم إلى المنطقة[3].

وقد استلم بعض المهاجرين مناصب هامة منها إدارية كنيابة الحكم ومنهم القاضي صدر الدين قاضي قضاة دمشق وعمر بن بندار التفليسي، وقضاء القضاة كعمر بن عبد الرحمن القزويني، إضافة إلى التدريس في المدارس كعلاء الدين أحمد السيرا في الحنفي، الذي أقام في ماردين ثم توجه إلى الشام فنزل حلب أولاً، ثم توجه إلى مصر بطلب من الظاهر برقوق حيث تولى تدريس مدرسة هناك وتوفي سنة ٧٩٠ هـ /١٣٨٨م حيث تولى عوضه سيف الدين

١- ابن شاكر: فوات، ج ١، ص ٦٣- اليونيني: ذيل مراة، ج ٤، ص ١٨٥- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ١٨٨ – الذهبي: دول، ج ٢، ص ١٧٣ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٨- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٥٥-٢٩٣ – ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١ ورقة ٦٧٠- النعيمي: الدارس، ج ١، ص ٧٦.

٢- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥١١- النعيمي: الدراس، ج ١، ص ٢٣٠.

٣- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٧١٢.

السيرا في (ت ٨٠٠ هـ /١٣٩٧) القادم من تبريز عندما استولى تيمورلنك عليها مع أهله وعياله، ونزل حلب وظل هناك يفتي ويدرس[١].

ولم تقتصر أعمال المهاجرين على المناصب السياسية أو العسكرية بل دخلوا سلك الطب أيضاً فالحسين الأخلاطي أقام في حلب منقطعاً عن الناس في مكان بابلا بطرف حلب، ثم حضر إلى مصر لمداواة السلطان الظاهر برقوق وظل هناك إلى أن توفي[٢].

كما قدم بعض المهاجرين الذين أظهروا البدع بلباسهم وأشكالهم الغريبة، فقد قدم سنة ٧٠٦ هـ /١٣٠٦م براق العجمي في جمع نحو المائة في رؤوسهم قرون، وشواربهم محلوقة، وعليهم أجراس، وكانت هيئتهم مزرية، ونزلوا بالمتسع ثم زاروا القدس، وبعدها توجهوا لمصر. وكان الأفرم نائب دمشق قد أعطى الشيخ براق من خزائنه ألفي درهم إلا أنه رفضها.. فأخذها جماعته ورحلوا عن بلاد الشام إلى بلادهم فيما بعد[٣].

كما قدمت طائفة أخرى بقيادة شيخ يعرف بزاده سنة ٧٤٠ هـ /١٣٣٩م، وقد عبر هؤلاء إلى مصر ولم يستقروا في بلاد الشام، وقام الأمير قوصون بتأمين السكن لهم حيث استقروا في خانقاته فعمل لهم فيها عدة أوقاف[٤].

إلى جانب المهاجرين من الشرق تلقت بلاد الشام هجرات جماعية وفردية من بلاد الروم، وقد تكررت هذه الهجرات، وكان أول هذه الهجرات الجماعية سنة ٦٧٤ هـ /١٢٧٥م، ثم سنة ٦٩٠ هـ /١٢٩١م، حيث وردت جماعة من قونيه إلى حلب ومعهم الأمير عز الدين أيبك الخطاى مع أهلهم وغلمانهم، وبهاء الدين عمر بن ناصر الدين، ونظام الدين علي بن حسين، وعلي بن ايدمر الكرجي، وقد ذكر أحد الأمراء أنه مسير من قبل جماعة كثيرة تقرر حضورهم للأبواب السلطانية[٥].

أما العراق فقد كثر الوافدون منه إلى المدن الشامية، ومنهم التجار والعلماء من احتل مناصب إدارية ووظائف عسكرية. كما اختلط بعضهم في مجتمع المدن وتولى مناصب هامة فيها. ومن أهم الشخصيات التي وفدت إلى المنطقة صدر الدين العاقولي رئيس بغداد وعالمها

١- ابن شداد: تاريخ الظاهر، ص ٩١- السبكي: طبقات الشافعية، ج ٥، ص ١٣٠- العسقلاني: أنباء، ج ٦، ص ٧٥- المقريزي: المقفى، ج ١، ص ٥٩٣ – ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ١٧٣، ج ٦، ص ١٨٩.

٢- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ١٧١.

٣- اليافعي: مراة الجنان، ج ٤، ص ٢٤١ – التعيمي: الدارس، ج ٢، ص ٢٥٠.

٤- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ٢، ص ٢٩٤.

٥- ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية، ص ٤٨- العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٣.

وقد وفد هارباً من تيمورلنك، الحسن بن علي بن مسعود التكريتي الموصلي، ومحمد بن علي بن سويد بن معالي الربعي البعلي، جمال الدين الباجر بقي (ت ٦٩٩ هـ) في حين تولى الأمير بدر الدين يوسف بن درباس بن يوسف الحميدي تقدمة عساكر الشام في البقاع بعد أخيه جمال الدين وكان قد قدم دمشق إثر استيلاء المغول على العراق[١].

بينما تولى تقي الدين توبة بن علي بن مهاجرين شجاع بن توبة الربعي التكريتي الوزارة بدمشق ثلاث مرات حتى كانت وفاته (ت ٦٩٨ هـ)، وكان في البدء تاجراً يجول بين بغداد وبلاد الروم وديار بكر، وعند احتلال المغول للعراق قدم دمشق واستوطنها، وترقى في المناصب وأقرض المنصور قلاوون ستين ألف درهم بلا فائدة، فلما تولى المنصور السلطة حل عنه الضمان وأطلق له ما كان مكسوراً عليه وهو ما يقارب مائة ألف درهم، وتولى الخزانة بدمشق، ثم تولى الوزارة في عهد خمسة سلاطين هم المنصور، الأشرف، العادل، كتبغا، المنصور لاجين[٢].

وإلى جانب هؤلاء وفد إلى بلاد الشام طائفة إسلامية كبيرة العدد هي «المغاربة» إذ كان أهل المنطقة، يطمئنون إليهم، وكان لكل منهم مورد يكفيه ليعيش بكرامة وينصرف إلى شؤون الدين. وأكثر ما أقام هؤلاء بالقدس وذلك لمكانتها الدينية، فحصلوا على وظائف دينية في المساجد والمدارس والخوانق[٣].

٢- انعدام الاستقرار الاجتماعي:

أ - قتل السكان:

شمل القتل معظم سكان بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب وقد اثر القتل على أعداد السكان التي أخذت في التناقص. هذا التناقص الذي أدى إلى تخلخل الكثافة السكانية والتوزع الديمغرافي للمنطقة، فقد اتسعت مدينة على حساب أخرى، وأدى هذا بدوره إلى تدهور فعاليات المجتمع الاقتصادية من زراعة وصناعة وغيرها. فقد أدى القتل

١- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٣٨٤- ج ٢، ورقة ٢٩١- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٥٠٦- العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠١ – النعيمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٤.

٢- العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٧٥.

٣- العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٧٤- العليبي (أكرم حسن): دمشق بين عهد المماليك والعثمانيين ٩٠٦-٩٢٢ هـ /١٥٠٠-١٥٢٠م، دمشق، الشركة المتحدة للطباعة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢م ص ٩٢-٩٣ للمزيد من التفاصيل ينظر: علي أحمد: الأندلسيون في بلاد الشام منذ نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع، رسالة ماجستير في التاريخ، كلية الآداب، طبعة دمشق ١٩٨٣.

والأسر إلى اندثار حرف بأكملها ومهن كانت تشتهر بها بلاد الشام، كما أن القتل سبب الاضطراب والفوضى في بلاد الشام عامة، الأمر الذي جعل بعض المنظمات تظهر على الساحة، وتقوم بمهامها سواء لمساعدة السكان، أو لتحقيق طموح بعض الحكام والأمراء.

واضطر أكثر سكان بلاد الشام إلى الهجرة من مدنهم وقراهم خوفاً من القتل وهاجروا إما إلى مناطق بعيدة، أو إلى دول أخرى كمصر. فلم تسلم جميع مدن الشام من القتل والعذاب، فقد لون الغزاة أساليب التعذيب، إضافة إلى الأسر والنقل إلى أراضي الدولة المغولية.

كما تركزت العمليات العسكرية على مدن حلب، حماة، دمشق، أما حمص فكان نصيبها هو الأقل من هذه العمليات وبالتالي تعرض سكان هذه المدن لمجازر، ومذابح جماعية وحشية، ففي المناطق الشمالية بدأ المغول بمنبج سنة ٦٥٧ هـ /١٢٥٨م حيث قتلوا الكثير من سكانها، ثم انتقلوا إلى حلب وكمنوا لأهلها عند بانقوسا فهرب المسلمون طالبين المدينة عندئذ انقضوا عليهم وقتلوا الكثير منهم، وأثناء دخول الأهالي المدينة اختنق الكثير منهم لكثرة الازدحام[1].

غير أن المذبحة الكبرى في حلب كانت عند دخولهم بلاد الشام سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م فقد هجم المغول على المدينة عدة مرات، كذلك تعرضوا لضواحيها وقراها فقد هاجموا واستولوا عليها، وقد اضطرب سكان حلب عند هجوم المغول عليها، فأرادوا الهروب، عندئذ تمكن المغول منهم وقتلوا الكثير، حتى قيل إن ما قتل في بغداد أو في بلاد العجم لا يساوي ما قتل من أهل حلب. لقد امتلأت الطرقات والأسواق بالقتلى، فقد كانت عساكر الغزاة تسير فوق الجثث بالخيل لكونهم لا يجدون موضعاً خالياً من مقتول، وقد قتل في أحد المواقع أسد الدين بن الملك الزاهر بن صلاح الدين. وظل سفك الدماء لمدة ستة أيام من يوم الأحد إلى الجمعة رابع عشر صفر من السنة المذكورة، عندئذ أمر هولاكو برفع السيف، ونودي بالأمان، ولم يسلم من أهل حلب إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين أخي مردكين ودار البازيار، ودار علم الدين قيصر الموصلي والخانقاه التي فيها زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت في أيديهم، وقد قيل إنه سلم بهذه الأماكن ما يزيد عن خمسين ألف نسمة[2].

١- الهمذاني: جامع التواريخ، ج ٢، ق ١، ص ٣٠٦- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩١ – العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩١ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٥-٧٦- كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٠٤- عاشور: العلاقات، ص ٤٢- شهاب: الدولة الايلخانية ص ١٤٣- الصياد: المغول، ص ١٩٧.

٢- ابن العميد: ص ٤٩- أبو الفداء: ج ٣، ص ٢٠١- ابن الوردي: ج ٣، ص ٢٩٢-٢٩٣ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٢- العيني: ج ١، ص ٢٣٠-٢٣١ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٦- كرد علي: ج ٢، ص ١٠٥- دهمان – ولاة: ص ٤٩.

ونتيجة للذعر والخوف فقد اختبأ جماعة من أهل حلب، ولما نودي برفع السيف والأمان عادوا إلى أماكنهم، ثم عادت المدينة إلى الحياة الطبيعية بعد أن نودي بالأمان وأقيمت الجمعة بالجامع[1].

وإثر معركة عين جالوت وما تمخضت عنه هزيمة المغول، مر هؤلاء الغزاة بحلب أثناء عودتهم إلى ديارهم، فعاثوا بحلب، وأخرجوا أهلها إلى قرنبيا وهي شرقي حلب وارتكبوا فيها مذبحة تشيب بها النواصي[2].

لم يسلم النساء والأطفال والشيوخ من القتل، ففي حارم امتنع والي قلعتها من تسليمها إلا لفخر الدين الساقي والي قلعة حلب، فاحضره هولاكو حتى تسلمها، وعندما أصبحت المدينة في يده انتقم من الجميع، ولم ينج إلا صائغ أرمني، حتى البهائم قتلت على يد المغول خنقاً، ثم عين فخر الدين شحنة بحلب غير أنه قتله بعد ما أثبت عليه أنه جمع أموالاً كثيرة[3].

ومن الواضح أن القادة المغول قرروا ألا يبقوا أحداً في مدينة حلب، فقد هاجموها مرة ثالثة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م بعد عودتهم من أفامية، وأخرجوا من بها من الرجال والنساء ولم يبق في المدينة إلا من ضعف عن الحركة واختفى خوفاً على نفسه، وقسم الغزاة السكان إلى قسمين: الغرباء، وأهل البلد، ولم يعلم الناس ما يراد بهم، فظن الغرباء النجاة لأهل حلب، وظن أهل حلب نجاة الغرباء، ولما انقسم الطرفان توجهوا بهم إلى بابلي، فضربوا أعناقهم وفيهم جماعة من أقارب الملك الناصر، ثم أعادوا من بقي من أهل حلب إليها، وسلموا كل طائفة إلى رجل من الأكابر[4].

ولم تكن المناطق الجنوبية لبلاد الشام ببعيدة عن متناول أيدي المغول، فقد هاجمها الغزاة سنة ٦٥٨ هـ/١٢٥٩م فقتلوا السكان في نابلس، الأمر الذي اضطر الأمير مجير الدين بن أبي

١- الذهبي: العبر ج ٥، ص ٢٤١ – دول الإسلام، ج ٢، ص ١٦٢ – اليافعي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤٨.

٢- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٩ – النويري: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠ – الذهبي: العبر ج ٥، ص ٢٤٣ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٢- شهاب: الدولة الايلخانية، ص ١٥٠ – عاشور العلاقات، ص ٦٧.

٣- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٤٨٨- ابن الغوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٦٥- الهمذاني: المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ٣٠٧- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٣- ابن خلدون العمر، ج ٥، ص ٤، ص ٧٩٤ – المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٠- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٠- ابن الشحن: الدر المنتخب، ص ١٦٦ – شهاب: الدولة الايلخانية، ص ١٤٥- العريني: المغول، ص ٢٤٥.

٤- اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٣٦- النويري: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٣٠- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ٢، ورقة ٨٣.

زكريا، ونور الدين بن شجاع الأكتع للدفاع عنها غير أنهم قتلوا في المواجهة[1].

كما هاجموا غزة وبيت جبرين والخليل والصلت وبعلبك وبانياس فقتلوا ما قدروا عليه، ومن لم يقتلوه أسروه ثم عادوا بهم إلى دمشق وباعوا الأسرى والمواشي[2].

ولم تسلم مناطق الشام الشمالية ولا الجنوبية من عمليات القتل الإفرادية أو الجماعية، ففي سنتي ٦٧٠ هـ / ١٢٧١م، ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠م هاجموا كلاً من حارم والروج وحلب وقتلوا السكان، حتى اضطر الباقون إلى الاختفاء في المغائر والأسرية، واحرقوا الجوامع، وقتلوا الناس في المدارس، وربما تعود كل أعمالهم اللاأخلاقية هذه إلى المكاسب المادية التي كانوا يرجونها من المنطقة إذ أنهم استولوا على المواشي والغنائم، ولم يوفروا شيئاً وجدوه في طريقهم[3].

كما نالت مدينة حمص نصيبها من عمليات القتل والإبادة، وذلك عندما التقت جموع المسلمين مع المغول سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨١م فالمنهزمون من المعركة دخلوا المدينة فتبعتهم المغول حتى وصلوا إلى الداخل فقتلوا العامة، وأهلكوا عدداً كبيراً منهم، ولم يجر في مدينة حمص ما جرى هذه المرة من المغول[4].

والواقع أن بلاد الشام عانت زمن حملة غازان سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م) أكثر مما عانت من قبل، فلم يترك جنود غازان وأمراؤه وسيلة إلا اتبعوها لاستخراج الأموال، ومصادرة السكان فعذبوا وقتلوا الكثير في دمشق وخاصة في جبل الصالحية، فقد قتلوا ما يزيد على أربعمائة نفس، كما مات قسم من السكان في الزحام عندما حاولوا الفرار من مواجهته وقد توفي في الجبل ودمشق الكثير من الجوع والبرد ويقدر عددهم بنحو أربعة آلاف نسمة، وقد مات من شيوخ الحديث أكثر من مئة نفس[5]. وكانت هذه الأيام أياماً سوداء على دمشق، فقد حل

١- ابن العميد: المصدر نفسه، ص ٥٢- ابن خلدون: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٧٩٣- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٢٧- المقريزي: المقفى الكبير، ج ١، ص ١١٩- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٢.

٢- اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥١- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٧. العريني: المغول، ص ٢٤٧.

٣- ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٧٦- قسم ابن الفرات – المنصوري: التحفة، ص ٧٣- النويري: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٧- الذهبي: دول، ج ٢، ص ١٨١- العبر، ج ٥، ص ٣٢٣- المقريزي: ج ١، ق ٢، ص ٦٠٠-٦٨٢ – عاشور: العلاقات، ص ١١٥.

٤- المنصوري: المصدر نفسه، ص ١٥٨-١٥٩ – أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٥- ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢١٦- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٦٩٣ – العيني: عقد الجمان ج ٢، ص ٢٧٦ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ث ٣٠٣- عاشور: العلاقات، ص ١١٨.

٥- المنصوري: التحفة، ص ١٥٨-١٥٩ – النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤٠٠- الذهبي: دول ج ٢، ص ٢٠٤- الصفدي: تحفة، ج ٢، ص ٢٠٤- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٨- ابن خلدون – العبر، ج ٥، ص ٣٩٣ – المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٨٨٩-٨٩٦- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٨.

بأهلها من العذاب والبلاء والقتل والتنكيل ما سبق وصفه.

وكثر عبث المغول وفسادهم أثناء حملة غازان في فلسطين فقد قام بولاي الأمير المغولي بغارات على الأغوار، ووصلوا غزة والقدس الشريف وقتلوا بجامع غزة خمسة عشر رجلاً عادوا بعدها إلى دمشق بعدما أسروا عدداً كبيراً[1].

ولم تسلم حلب والمعرة وتيزين والعمق وجبال إنطاكية وجبل السماق من سوء تصرف الظالمين فقد هاجموها سنة ٧٠٠ هـ /١٣٠٠م وقتلوا الكثير من سكانها[2].

وكيفما كان الأمر فقد عمد المغول باستمرار إلى مهاجمة دمشق وذلك لإضعافها باعتبارها خط الدفاع الرئيسي الذي إن تجاوزوه وصلوا إلى مصر واستطاعوا مهاجمة دولة المماليك التي أخذت على عاتقها حماية المسلمين في المنطقة ضد الخطر المغولي، لذلك نرى أن قائداً مغولياً يدعى كولوتسا دخل الشام سنة ٧٠٣ هـ /١٣٠٣م وملك دمشق وأحرق البيوت والزروع وقتل السكان، ثم عرج في طريق عودته إلى حمص وقتل من وجد فيها من المسلمين[3].

وتستقر الأوضاع في بلاد الشام قليلاً، وينعم السكان بنوع من الهدوء، والراحة، والأمان، ليصل إلى المنطقة آخر الغزاة المغول الذين لهم يد طولى وقدم راسخة في تدمير الحضارة الإنسانية، ألا وهو تيمورلنك، ذلك أن هذا الغازي الذي خرج من أواسط آسيا استطاع أن يشق طريقه غرباً على أنقاض المدن، وجثث القتلى حتى وصل إلى بلاد الشام، وكان سلاحه المذابح والحرائق، والقتل الجماعي والإبادة ترافق هذا القائد وجنوده. وقد فاق في وحشيته أسلافه المغول الذين أتوا المنطقة كهولاكو وغازان، ففي مدينة حلب هلك تحت أرجل خيله خلق كثير لا تعد ولا تحصى، حيث امتلأت الخنادق من كثرة القتلى، وحاولت النساء والصبية الخروج من أبواب حلب، فداس بعضهم بعضاً حتى صارت الرمم طول قامة، والناس تمشي من فوقها، والمغول يقتلون، كما احتمت النساء والأطفال في الجوامع، لكن المغول هتكوا حرمة الجوامع وقتلوا الناس فيها فامتلأ الجامع والطرقات برمم القتلى واستمرت هذه المصيبة على أهل حلب أربعة أيام متتالية، من يوم السبت إلى الثلاثاء الثالث عشر والرابع عشر من ربيع الأول، وقد سببت كثرة القتلى في المدينة تلوث الهواء وعفونته، وقد تفنن المغول في

١- المنصوري: المصدر نفسه، ص ١٥٨- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤٠٠- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٠- دهمان: ولاة، ص ١٠٩.

٢- ابن الغوطي: المصدر نفسه، ص ٢٣٨- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٥- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤١٥ – ابن الوردي: تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٥٥ – كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٣٧.

٣- منتريوس: تاريخ دول الإسلام، ج ٢، ص ٢٨٨.

أساليب قتل النساء، حيث أنهم ربطوهن بالحبال، كما أعملوا السيف في الأطفال. وقد أوقفت هذه المذبحة ضد أهالي حلب بعدما استسلمت القلعة.

كما بنى تيمور من رؤوس القتلى منابر مرتفعة في السماء نحو عشرة أذرع في طول عشرين ذراعاً فكانت زيادة على عشرين ألف رأس، عدا من هلك تحت أرجل الخيول عند اقتحام أبواب المدينة، وكان تيمور يقدم على بناء هذه المنابر إظهاراً لعظمته على جري عادته في البلاد الأخرى[1].

كما أن حماة تعرضت لبطش ابن تيمورلنك واسمه ميران شاه، حيث دخلها واشعل النار في أرجائها، وانتشر جنوده يقتلون ويأسرون وينهبون حتى صارت كمدينة سوداء خالية من الأنيس، ليس فيها إلا القفار[2].

وتمكن هذا الغازي بجبروته وقوته وشدته المتناهية من الوصول إلى دمشق، وكان وصوله طامة كبرى بالنسبة لهذه المدينة، فاضطرب الأهالي الموجودون خارج الأسوار وخافوا وتوجهوا نحو المدينة، فوقع الازدحام عند باب النصر، فمات منهم خلق كثير، كما أن تيمور كان يلقي من ظفر به تحت أرجل الفيلة. وعندما اقتحم تيمور المدينة ارتكب مجزرة وحشية لم يسمع بمثلها، فقد قتل الأطفال في سن الرضاعة وحتى سن الخامسة - وقد قلد في ذلك من سبقه أمثال هولاكو الذي قتل الأطفال في المهد - حيث جمع الأطفال في مكان خارج المدينة، ثم وقف تيمورلنك وأمر عسكره بأن يدوسوا عليهم بالخيل، فماتوا كلهم وكانوا نحو عشرة آلاف طفل، وقد لامه أمراؤه على فعله ذلك، فقال:

«انتظرت أن الله ينزل على قلبي فيهم رحمة، فما نزل على قلبي فيهم رحمة»[3].

كما سيق أطفال دمشق ورجالها ونساؤها مربوطين بالحبال، ولم ينج من سكان المدينة إلا من احتمى بكبراء الجفتاي، ثم أضرمت النيران في البلد وكانت معظم بيوته من الخشب

١- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١ ورقة ٣٥١- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٣-١٠٣٤ - ابن تغري بردي: المنهل، ج ٦، ص ١١٤- النجوم، ج ٢، ص ٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥- ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ٢٠٧-٢٠٩- الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٧٥-٧٦- السخاوي: الضوء، ج ٣، ص ٤٦-٤٨- القرماني: أخبار، ص ٢٠٨- ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج٧، ص ٧٢- الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ١٧٥- العلبي: تيمورلنك، ص ١٣٣- كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٦٧- لامب: تيمورلنك، ص ١٢١- حمادة: دراسة وثقية ص ٣٥١.

٢- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٥-١٠٣٦- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٢٥-٢٢٦- كرد علي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٧- لامب: المصدر نفسه، ص ١٢١.

٣- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٧.

فامتلأت أرضها بجثث القتلى، وقد أدى ذلك إلى فناء الكثير من العمائر والأقمشة والأثاث، ولكثرة الموتى انشغلت الكلاب بأكل لحومهم، فلم يجسر أحد على العبور إلى جامع بني أمية لكثرة القتلى. وقد استمر هذا البلاء تسعة عشر يوماً[1].

لقد كثرت الضحايا في دمشق، فمن لم يمت بالحريق مات جوعاً حيث لم يستطع الهرب ولم يستطع تأمين لقمة العيش، ومنهم من مات غريقاً، وقد بلغ الأمر بأهل دمشق قبل رحيل العسكر عنها أن الواحد من جنود تيمورلنك كان يدخل إلى البيت وهو مليء بأهله فيصنع بهم ما يشاء من قتل ونهب وفسق لا تمتد إليه يد، ولا يخاطبه لسان لما غلب على القلوب من الخوف منهم. وقد خربت دمشق بالكامل ففي سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠١م دخلها الأمير تغري بردي: فوجدها خراباً بسبب حرقها ونهبها وسبي أهلها[2].

وقدر المؤرخون أن أعداد الذين هلكوا بحلب وحماة ودمشق في محنة تيمورلنك بالجوع والقتل والحريق والأسر عشرات الآلاف، بينما قال مؤرخون آخرون إنه لا يعلم عددهم إلا الله تعالى[3].

والخلاصة أن تيمورلنك ترك بلاد الشام أطلالاً بالية، أطفالها معرضون للجوع والموت، نساؤها ثكلى على أزواجهم وإخوانهم وآبائهم.

وقد قال بعض أهل الأدب فيما حل في حلب:

يا عيني جودي بطرف منك منسحب	طول الزمان على ما حل في حلب
من العدو الذي قدام ساحتها	ناح الغراب على ذاك الحمى الخرب
ويلاه ويلاه يا شهبا عليك وقد	كسيتي ثوب حزن غير منسلب
من بعد ذاك العلا والعز قد حكمت	بالذل فيك يد الأوغاد والنوب
وحين جامعنا الله ما دفعت	عنك الجيوش ولا الشجعان بالقضب
وأصبح المغل دكاماً عليك ولم	يرعوا لجارك ذي القرى ولا الحبب

١- العسقلاني: أنباء، ج ٤، ص ٢٠٨-٢٠٩- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٤٤٥- ابن عريشاة: المصدر نفسه، ص ٢٨٩- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٧- ابن العماد الحنبلي: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٦٤- القرماني: المصدر نفسه، ص ٢١٠- شهاب: تيمورلنك، ص ٢٩٨-٣١٨-٣١٩.

٢- ابن طولون: إعلام الورى، ص ٥٧.

٣- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٧٣ – ابن تغري بردي: المنهل، ج ١، ص ١٦٥- النجوم، ج ١٢، ص ٢٤٥- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٧.

وفرقـوا أهلـك الـسادات وانتـشروا ... في كـل قطـر مـن الأقطـار بـالجوب

وبـدلوا مـن لبـاس اللـين ذا خـشن ... نعـم ومـن راحـة الأبـدان بالنـصب

وخربـوا ربعـك المعمـور حـين غـدوا ... يسعون في كـل نحـو منـه بالنكـب[1]

وهكـذا كـان للغـزو المغولي انعكاسـات سلبية على المجتمع، فقـد دبت فيـه الفوضى والنزاعات بين أعيان السلطة وأهل المنطقة إذ تجسد هذا القول عملياً عند النزاع بين نائب حلب كمشبغا الحموي، والسلطان حاجي سنة ٧٩١ هـ /١٣٨٨م الذي انعكس قتلاً وسلباً على أهل بانقوسا في حلب[2].

كما أن نائب غزة حسن بن باكيش استغل الاضطرابات الحاصلة سنة ٧٩٢ هـ /١٣٨٩م وقتل الكثير من الناس، وماثله في هذا العمل نائب طرابلس يونس بلطا حين أقدم سنة ٨٠٢ هـ /١٣٩٩ على قتل ما يقارب الألف من طرابلس، وأخذ أموالهم وسبي حريمهم إذ كانت هذه الواقعة من أقبح الحوادث[3].

ب - نهب السكان:

عانت مدن الشام من الهجوم المغولي عليها، فإلى جانب القتل والسلب والمصادرات وغيرها قام الغزاة بنهب محتويات المدن سواء العلمية أو المالية أو التجارة وغيرها. فقد أقدم الجيش المغولي عندما قدم هولاكو إلى الشام على نهب النفائس العلمية والأدبية والفقهية من بلاد الشام وأرسلت إلى المجمع العلمي الذي أسس تحت أشراف نصير الدين الطوسي، والذي أقام له مرصداً بمراغة، وجعل هناك خزانة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة وقد تجمع فيها ما يزيد على أربعمائة ألف كتاب[4].

أما في دمشق فقد أقدم الغزاة على نهب محتويات القلعة بالإضافة إلى تخريب أسوارها[5]. أما نواحي حلب فقد نهبت كلها[6].

وكان الأرمن يحيطون بأطراف البلاد الشمالية لذلك قاموا بالهجوم على هذه الأطراف

١- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٣٥٣.

٢- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٢، ص ٦٦٢-٨٦٤- الصيرفي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٦.

٣- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ١٩١-٢٥٠.

٤- ابن شاكر: فوات الوفيات، ج ٢٥، ص ٣٠٧- دهمان: ولاة، ص ٥١.

٥- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٣- - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢١٩.

٦- الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٢٤١.

أكثر من مرة ونهبوا المدن والقرى وهذا ما فعلوه سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١م حيث أغاروا على الفوعة من ضواحي حلب وسلمين وجبل ببلون والحفة وأفسدوا ونهبوا حتى استطاع نائب السلطة ردهم على أعقابهم[١].

وقد كرروا عملهم هذا سنة ٦٦١ هـ /١٢٦٢م عندما قام التكفور بنفسه بالهجوم على الجومة، ومعرة مصرين وسرمين والفوعة، حيث أسر من رجالها ثلاثمائة وثمانين نفراً إضافة إلى كبس سرمين ونهب غيرها من المناطق التي تعرضوا لها[٢].

وسبب قدوم غازان إلى بلاد الشام سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م فوضى واضطرابات أمنية في البلد فقد هرب السجناء من سجون دمشق ونهبوا الأموال، وكانوا مائتي رجل تقريباً، كذلك كسروا أقفال الباب البراني بباب الجابية، ولم يقتصر النهب في دمشق على أهل السجون بل نهبت من قبل المغول أنفسهم بعد خروج غازان[٣].

كذلك نهبت الأماكن المتواجدة حول قلعة دمشق[٤]. وفي سنة ٧٠٠ هـ /١٣٠٠م نهب غازان كثيراً من الحيوانات عند هجومه على حماة وسرمين[٥].

كما ساهمت جماعة من المغول تلك المتمركزة في بلاد الشام وخاصة الشمالية في نهب مدن الشام ففي سنة ٧١٦ هـ /١٣١٦م تعرضت أطراف حلب للنهب. وقد وصل المغول في غارتهم قريباً من قلعة كحتا[٦].

تمركز تيمورلنك في مدن الشام كحلب ودمشق التي تعرض سكانها للنهب، ففي حلب نهب جنوده مشهد الدكة بما فيه من الأواني الفضية والبسط وخربوا الضريح والجدار ونقضوا أبوابه، كذلك نهبوا مشهد الحسين وأخذوا ما وقعوا عليه من الستور والبسط والفرش والأواني النحاس والقناديل الذهب والفضية والشمع، ولم يكتفوا بذلك بل خربوا أبوابه[٧].

كما نهب ما وجد في قلعة حلب من الأموال والمتاع. ومع انه لم يستقر في بعلبك إلا أنه

١- اليونيني: ذيل مرآة، ج ١، ص ٤٩٦- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٣٤.

٢- اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٣١.

٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٧ – المقريزي: المقفى، ج ٧، ص ١٧١-١٧٣- دهمان: ولاة، ص ٩١.

٤- اليافعي: مرآة، ج ٤، ص ٢٣٠- الذهبي: العبر، ج ٥ص ٣٩١.

٥- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤١٥ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٥- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧ ص ١٣٢.

٦- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٦٢.

٧- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٨٧-٨٩.

نهبها[1]. وفي الوقت نفسه قام ابنه ميران شاه بنهب خارج سور مدينة حماة[2].

وبعد أن أنهى تيمورلنك نهبه للمناطق الشمالية والوسطى من بلاد الشام توجه نحو مدينة دمشق وجبى منها الأموال ونهبها، وطلب من جنده القيام بغارة عامة على المدينة. وقد بدأت عمليات النهب من ٣٠ رجب ١٤٠١م وقد استمرت ثلاثة أيام قام خلالها الجند بنهب ما تبقى من مال ومتاع[3].

وإثر استيلائه على قلعة دمشق أخذ منها أموالاً لا تعد ولا تحصى من ذهب وفضة وقماش وسلاح وأثاث وغير ذلك من أموال أهل الشام وأهل مصر. وممن نهب ماله من أهل مصر علي بن سيف بن علي بن سليمان القاهري ويقال إنه باع دمشق لأهلها ثلاث مرات وفي كل مرة بحماة مستكثرة[4].

وقد أثارت المنهوبات إعجاب الغزاة ووفرتها، فقد ضمت الجواهر والنفائس التي عثر عليها في قلعة دمشق وفي دور الأغنياء. ولكثرة المنهوبات لم يستطيعوا حملها في الطريق فقد كانوا يطرحونها في الدروب والمنازل حتى أصبحت الطرق التي مروا عليها كأنها سوق أو معرض[5].

ج - تعذيب السكان:

كانت المكاسب المادية من ضمن الأهداف التي سعى المغول للحصول عليها من المناطق التي استولوا عليها، لذلك اتبعوا أساليب كثيرة للحصول على هذه المكاسب.

وأقسى أساليب التعذيب اتبعت في حملة تيمورلنك، أما في حملة غازان فكانت اخف وطأة منها، وفي حملة هولاكو لم يذكر المؤرخون أنه اتبعت أساليب لتعذيب السكان للحصول على هذه المكاسب ربما لأن النصر في عين جالوت جعلهم يخرجون من المنطقة بسرعة دون أن يستقروا فيها ويحصلوا على ما يريدون، وإنما أوردت المصادر أسماء بعض الشخصيات التي ماتت تحت التعذيب، منهم ابن العجمي أبي طالب عبد الرحمن بن عبد الرحيم الحلبي،

١- كرد علي: خطط، ج ٢، ص ١٧٤.

٢- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٥ – ابن تغري بردي: النجوم/ ج ١٢، ص ٢٢٥ – ابن إياس، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٠.

٣- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٢، ص ٢٤٥- العلبي: تيمور: ص ١٨٦- والتر: المصدر نفسه، ص ١٥٦- لامب: تيمورلنك، ص ١٢٦- شهاب: تيمورلنك، ص ٣١٧.

٤- ابن عربشاه: المصدر نفسه، ص ٤٧٦- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ١٢٥- الصيرفي: نزهة، ج ٢، ص ٨٨-٨٩- السخاوي: الضوء، ج ٥، ص ٢٣٠.

٥- ابن عربشاة: عجائب، ص ٢٨٨- لامب: المرجع نفسه، ص ١٢٦- شهاب: المرجع نفسه، ص ٣١٨.

إبراهيم بن خليل الآدمي، الرئيس أبي طالب عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن العجمي[1].

وفي فترة حملة غازان سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م هلك الكثير من سكان بلاد الشام، إما نتيجة الجوع أو نتيجة التعذيب الذي مورس ضدهم. وقد مات في التعذيب الكثير من الشخصيات البارزة أمثال علي بن الحسن بن عبد الله بن الجابي الخطيب بجامع جراح، / ومحمد بن أبي بكر بن عبد السلام بن إبراهيم الصالحي الحفار. وابن شقير وابن المنجي، ابن القلانسي وغيرهم من كبار البلد، مثل قاضي القضاة ابن صصري.

وقد اتبع المغول مع هؤلاء أسلوب الضرب على الظهر مع مسك الأكمام، أو أسلوب العصر وغيره[2]. وقد بدأ عهد من التعذيب الوحشي في المناطق التي استولى عليها تيمورلنك ولم تنج مدينة من المدن من الخراب والعذاب والفساد، فقد تعرضت دمشق، ومثيلتها حماة، وحلب لهذا العذاب.

كما مارس تيمور على أهل دمشق أنواعاً كثيرة من العذاب كالضرب والعصر، والإحراق، التعليق منكسين، غم أنف الفرد بخرقة فيها تراب ناعم كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق، وإذا أشرف الرجل على الهلاك يخلى عنه حتى يستريح ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً، وتؤخذ نساؤه وبناته وأولاده ويقسم الجميع على أصحاب تيمور.

واتبع المغول أساليب أخرى للتعذيب منها أنهم كانوا يأخذون الرجل ويشدون رأسه بحبل ويلويه حتى يغوص في رأسه، ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه بعصاه حتى تتخلع الكتفان، ومنهم من كان يربط إبهام يدي المعذب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره وينزع منخريه الرماد مسحوقاً، فيقر على ما عنده شيئاً بعد شيء، ولا يزال يكرر عليه العذاب حتى يموت، ومنهم من يعلق بإبهام يديه في سقف الدار وتشعل النار تحته ويطول تعليقه فربما يسقط في النار، فينسحب منها ويلقونه على الأرض حتى يفيق ثم يعلق ثانياً.

أو كان الشخص يعلق من إبهامي قدميه بالسقف وتوقد النار تحته، أو يربط بحبل من تحت إبطيه ويعلق بالسقف، ثم يبرم بشده ليدور على نفسه بسرعة كبيرة، ويجبر أحياناً على المشي على النار، أو تقص أعضاؤه، أما الأعيان الكبار فعذبوهم بالماء والملح وسففوهم الرماد والكلس، وكووهم بالنار، واستخرجوا منهم الأموال، وقد استمر تعذيب السكان تسعة

١- الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٢٤٦- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٩١.

٢- ابن أيبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ٢٩- العسقلاني: الدرر، د ٣، ص ٣٩-٤٠٤- الشوكاني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣- العصر: كان يوضع الشخص أو أطرافه بين خشبتين ويضغط عليه حتى تكاد روحه تزهق، ثم يرتاح، ثم يعودوا لتعذيبه حتى يقر بما عنده من أموال. — انظر دهمان: ولاة، حاشية (١)، ص ١٠٦.

عشر يوماً حتى الثلاثاء ٢٩ رجب ١٤١٠م[١].

وقد صور بعض المؤرخين حالة دمشق ومنهم الصيرفي حيث قال:

«كم من تاجر يقاد وهو في قيد، وكم من شاب يستغيث وهو يقل التراب، وكم من شيخ يصيح وهو في العقاب، وكم من صغير تحت سنابك الخيل طريح، وكم من فقير من الجوع يصيح، وكم من بكر قد أزيلت عذرتها، وكم من مخدرة قد اهتك سترها، وكم من غني كان يطعم الناس ويعطيهم فصار اليوم يسأل الناس ويستعطيهم، وكم من عزيز وصاحب رفعة وشأن صار اليوم في قهر وخذلان فصار أهلها ما بين كسير وطريح، وأسير وجريح، فصاروا كبني إسرائيل، سلط عليهم أنواع البلايا، قهر تيمورلنك وأسره، وخراب الدور والبقاع، ووقوع الحريق في الأصقاع، وسبي الحريم والأطفال، واستعباد الرجال والنساء والغلاء المفرط الشامل، والبرد والثلج والمطر النازل، ثم بعد ذلك كله جراد منتشر وموت ذريع، وخوف مستمر وضنك منيع، آيات بينات فيها عبر وتنبيه»[٢].

أما حلب فقد أذاقوا أهلها أنواعاً من العذاب كالقتل والعصر والكي والعقاب، فقد سجلت أسماء الناس، ثم قبض عليهم، ولم يسلم من العقوبة إلا القليل، ويدل على ذلك ما ذكره ابن عربشاة بأنهم عذبوا ما بين مقيد وسجين ومرسم عليه. ولم يسلم المشايخ من عذابهم، فما فعلوه مع الشيخ علي بن محمد بن أحمد أنهم ملؤوا سطل نحاس من الماء والملح ليسقوه إياه وشرعوا في ربطه، فجاء ثور وشربه، فأطلقوه ولم يعاقبوه.

واستمر هذا العذاب بحلب عشرين يوماً وشاهد الناس الكثير من البلاء، بينما أقام تيمورلنك وليمة بعد استيلائه على القلعة. ويقال إنه بنى بحلب عدة مآذن من رؤوس بني آدم لكثرة من مات من القتل والتعذيب وقيد قيل في ذلك شعراً:

على حلب مصائب	بأيدي تيمرلنك ومغل وجفطاي
من آل هلاوز وباطو وجنكز	والغاز وقازان وبيد وطقطاي
وطوس وخريندا وننجي وكتبغا	نويس وصوفان وقيد وبولاي
وردوس ونكدا دويلطر وطلسبا	وطولوا وسور وزنجي ونوغاي[٣]

١- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٥- ابن عربشاة: عجائب المقدور، ص ٢٨٠- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٤٤-٢٤٥ - المنهل، ج ٤، ص ١٢٥. - ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٥ - العليبي: تيمور، ص ١٨٤-١٨٥ - السيد: دولة المماليك الثانية، ص ١٤١- شهاب: تيمورلنك ص ٣١٧ - العليبي: تيمورلنك ص ١٨٦ - والتر (فيشل): لقاء ابن خلدون لتيمورلنك، بيروت، دار الحياة، ص ١٥٥.

٢- الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٩١-٩٢.

٣- ابن عربشاة: المصدر نفسه، ص ٢١٦- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ١٢١- الصيرفي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٥-٧٦- السخاوي: الضوء، ج ٥، ص ٢٨٤، ج ٣، ص ٤٨- الشوكاني: المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٦.

وقد مات من أصحاب المهن العلمية والدينية والحرف الكمالية إضافة إلى المناصب السياسية الكثير، فممن توفي تحت عقوبة الكية نذكر بعض الأسماء:

- حسن بن منصور البدر الحنفي متولي الحسبة.
- عبد الأحمد محمد بن عبد الأحد بن عبد الرحمن أبو المحاسن الحراني.
- علي بن العلاء بن مفلح الدمشقي مات من الكوي على ظهره.
- محمد بن سليم بن كامل الحوراني.
- عمر بن براق الدمشقي.
- محمد بن عمر بن محمد بن أبي الكتائب العجلي.
- الشيخ زيد الدين عمر النيربي الشافعي المفتي بدمشق[1].

د - الأسر:

أجمعت المصادر العربية على وصف المغول بأنهم فاقوا في قسوتهم أشد الشعوب همجية، فقتلوا غيلة جميع من وقع في أيديهم من أهل البلاد التي استولوا عليها، ولم يبقوا على رجل أو امرأة وطفل[2].

وهذا الكلام صحيح، فلو نظرنا إلى حالة بلاد الشام بعد ما أحرقت ونهبت وقتل سكانها ودمرت ماذا جرى بعد ذلك لأهلها؟ لقد سيق بعض السكان أسرى من قبل الغزاة، ولم يكن حافزهم وباعثهم على هذا العمل هو طلب الثأر أو الانتقام، وإنما كانت بواعثهم إرضاء المطامع السياسية لحكامهم، بوجوب إخضاع المنطقة لسيطرتهم، والاستقرار فيها، يرافقها مطامع اقتصادية وأخرى دينية.

وكان المغول لا يرحمون كبيراً ولا صغيراً عجوزاً أو شاباً، فقد سبوا النساء واسروا الصبيان والرجال ولم يفرقوا بين ملة وأخرى وإنما طبقوا هذا على جميع الملل، وهذا ما حصل عند قدوم هولاكو لمدينة حلب، فقد سبوا ما يزيد على مائة ألف نفس ما بين صبي وعجوز وامرأة ورجل، وكان من بين السبايا بنات الملوك والأمراء، وبنات الأعيان من الحلبيين وخاصة الأثرياء، كما شمل الأسر أولاد الملك الناصر وأقاربه وأهله، وقد بيع أكثر هؤلاء في بلاد

١- العسقلاني: أنباء، ج ٢، ص ٣٠٩-٣٣٠ — الصيرفي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٥-١٢٨- السخاوي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٢٩- ج ٤، ص ٢١- ج ٦، ص ٥٧- ج ٧، ص ٢٦٢.

٢- الصياد: المغول، ص ٢٢٣.

الفرنج وبلاد الأرمن ونقلوهم إلى جزائر البحر الجوانية[1].

وكان المغول بعد كل غارة تقريباً يبيعون ما استطاعوا بيعه من الأسرى، وهذا ما حصل عندما هاجم المغول غزة والخليل والصلت وبركة زيزا والكرك فقد أسروا النساء والصبيان وباعوا أكثرهم في دمشق، وأطلقوا بعضهم وهرب قسم آخر، واصطحبوا من بقي معهم[2].

وقد تكررت أعمالهم الوحشية من السبي والأسر في كل مدن الشام ففي سنة ٦٧٩ هـ /١٢٨٠م سبوا الكثير من حلب، كذلك سنة ٦٨٣ هـ /١٢٨٤م حيث قاموا بسبي أهل وادي التيم. وسنة ٦٦٩ هـ /١٢٩٩م في دمشق عند دخولهم الصالحية فقد أسروا نحو اربعة آلاف نسمة، وعندما نهبوا دير الحنابلة سبي من كان فيه من النساء والأولاد، ومن جملة ما أخذوا مائة وعشرين بنتاً، وفي مصادر أخرى ألف بنت بكر، كما أسروا القاضي تقي الدين الحنبلي حيث وضعوا في رقبته حبلاً كانوا يجرونه فيه ثم تركوه وقاموا بأسر عدد كبير من سكان فلسطين، ويقال إن الذي صحبهم غازان من الأسرى في هذه السنة من البلاد أحد عشر ألف نفس من الرجال والنساء والأطفال، ولم يصحب معه إلى بلاده إلا القليل منهم، فإن بعضهم قد هرب، وآخرون ماتوا، وبعضهم الآخر اختفى[3].

وقد تدخلت الهيئات الدينية في فك قيد الأسرى الذين أخذهم غازان ونائبه قطلوشاه وقد وصف ذلك الشيخ ابن تيمية الذي قام هو بنفسه بطلبهم من القائد المغولي حيث أنه أقام عنده ثلاثة أيام يحادثه ويعظه ويكلمه في فك ما بيده من الأسرى، فاستنقذ عدداً كبيراً منهم وقد وصف ذلك ابن تيمية حيث قال:

«لما خاطبت في إطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان وقطلوشاه، وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين، قال لي: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يطلقون، فقلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، فانا نفكهم، ولا ندع أسيراً

١- الذهبي: دول، ج ٢، ص ١٦٢- اليافعي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤٨- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢١٨- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٢- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣١- شهاب: الدولة الايلخانية، ص ١٤٥- عاشور: العلاقات، ص ٤٣- فهمي: الدولة المغولية، ص ١٤١.

٢- اليونيني: ذيل، ج ١، ص ٣٥١ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص٤٢٥ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٧- العريني: المغول، ص ٢٤٧.

٣- الذهبي: دول، ج ر٢، ص ٢٠٤- الصفدي: تحفة الألباب، ج ٢، ص ٢٠٤- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٦٨٢-٨٩٦- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٨- ابن صصري: الدرة المضيئة، ص ٩٢- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٧-٤٧- كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٧-١١٩- عاشور: العلاقات، ص ١٥٣.

لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة. وأطلقنا من النصارى من شاء الله، فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله»[1].

فكانت الهيئات الدينية تحاول قدر الإمكان رفع الضرر عن فئات المجتمع، فلا تفرق بين ملة وأخرى بل إن جميع السكان متساوون في حقوق المواطنة بغض النظر عن أديانهم.

ولم تسلم الجبال البعيدة عن متناول غازان، فقد توجه وجيشه إلى جبال إنطاكية والسماق، وسبوا النساء والصبيان، وأسروا من الرجال خلقاً كثيراً، وكالعادة فقد عرضهم للبيع، ورخصت الأسرى من المسلمين حتى بيع الأسير والأسيرة بستة دنانير أو عشرة دراهم، وقد اشترى الأرمن خلقاً كثيراً من الأسرى وسيروهم في المراكب إلى بلاد الفرنج.

وقد ظن سكان بلاد الشام أن في الجبال البعيدة أماناً لهم من المغول إذا ما داهموا المنطقة، لكن ذلك لم يفد بشيء فقد كانت هذه الجبال تغص بالكثير من الهاربين إليها وإلى الجهات الساحلية. وقد أدى ذلك إلى وقوع كثير من الأسرى بيد غازان[2].

ومن الجدير بالذكر أن جميع مدن الشام دون استثناء قد تعرض أهلها للسبي والأسر في أثناء حملة تيمورلنك على بلاد الشام. فقد أسر الغزاة القضاة والعلماء والأدباء والأطفال والشيوخ والنساء والفلاحين والحرفيين ولم يسلم منهم أي إنسان. ففي مدينة حلب أسر جيشه جماعة من القضاة والعلماء والأعيان من التجار ومن عسكر مصر ومن أمرائها وقضاتها، وأسر في هذه الوقعة نائب حلب بالذات وهو دمرداس المحمدي ونائب الشام سودون، وشيخ المحمودي نائب طرابلس لكن الأخير استطاع أن يتخلص منهم فيما بعد وهرب إلى القاهرة، ثم عاد إلى ولايته وقد تولى نيابة دمشق ٨٠٥ هـ /١٤٠٢م ولم يبق في بلاد الشام بلدة إلا وحكم فيها أما بتوليه من السلطان أو بيده القوية، إضافة إلى اسنباي الزردكاش (ت ٨٠٢ هـ/١٤٤٨م)، الكتبغا بن عبد الله العثماني لكنه هرب من الأسر وقدم إلى الديار المصرية، وتنقلت به الأحوال، وولي عدة وظائف إلى أن آلت السلطنة للمؤيد شيخ المحمودي، بهاء الدين عمر نائب غزة.

وأسروا من أعيان دمشق القاضي ناصر الدين أبي الطيب كاتب سر دمشق، ومن أعيان الديار المصرية قاضي قضاة الشافعية صدر الدين المناوي، وقاضي قضاة المالكية ولي الدين

١- دمج (علاء الدين): الرسالة القبرصية خ

طلب من شيخ الإسلام ابن تيمية على سرجواس ملك قبرص. دار ابن حزم بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ /١٩٨٧م، ص ٤٠- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤. دهمان: ولاة، ص ١٠٩.

٢- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤١٥ – ابن إيبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ٤٦- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٨- بدر: مغول إيران، ص ٩٥-٩٦.

عبد الرحمن بن خلدون، ويقال إن عدد الأسرى الذين ساقتهم جيوش الفاتح في ركابها ثلاثمائة وستون ألف أسير بين رجل وامرأة، وقد أخذ من الفقهاء والعلماء، وحفظة القرآن وأهل الحرف والصناعات والعبيد والنساء والبنات والصبيان ما لا يسع الضبط ولا يحل الربط[1].

وقد استمر الأسر والسبي في حلب طيلة الفترة التي أقام بها تيمورلنك في المدينة، وزع على أمرائه الأسرى من الشباب والأبكار، وكان جنوده قد ارتكبوا أبشع الأعمال تجاه النساء والأطفال الذين احتموا بالجوامع فمال عليهم أصحاب تيمور وقرنوهم بالحبال، وهلك من الأطفال التي أسرت أمهاتهم بالجوع أكثر ممن قتل[2]. وقد أخذ تيمورلنك جميع من كان في قلعة حلب من المعتقلين خلا بعض القضاة، فأطلق موسى الأنصاري، وعمر بن العديم، وأخذ بقيتهم فهرب بعضهم في الطريق[3].

وقد طبق على حماة ما طبق على المدن الشامية الأخرى، فابن تيمورلنك ميران شاه سبى منها الأطفال والنساء وأسر الرجال[4].

كما سيق أسرى دمشق بعد ما ربط الأولاد مع الرجال، وكانت مدة بقائه في دمشق ثمانين يوماً فعل فيها كل التصرفات الشنيعة[5].

وسنورد بعض أسماء الشخصيات الذين نقلهم المغول كأسرى إلى بلادهم، وكان أكثرهم أصحاب مهن حرفية أو علمية قد استخدموا في وظائف الدولة هناك.

- عبد الرحيم بن عثمان بن علي النصيبي الصالحي المعروف بابن الطباخ، أقام عند المغول مدة في الأسر ثم عاد. مات بدمشق سنة ٧٤٧ هـ /١٣٤٦م[6].

- علي بن محمد بن نصر الله بن المظفر بن أسعد بن حمزة التميمي. علاء الدين بن

١- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٥٧- ابن عربشاة: المصدر نفسه، ص ٢٩٥- العيني: المصدر نفسه، طبعة الزهراء، ص ١٠٦- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ٤٣٣- ج ٣، ص ٥١-٥٢- الصيرفي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٧- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٥ – كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٦٧-٣٢٢- لابيدوس: مدن الشام، ص ٦٤.

٢- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٣٥١- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٣- العسقلاني: أنباء، ج ٤، ص ١٩٦-١٩٧- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٢٣-٢٢٤- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٨- القرماني: أخبار الدول، ص ٢٠٨- الشوكاني: المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٥- لامب: المرجع نفسه، ص ١١٩- العلبي: المرجع نفسه ص ١٣٣.

٣- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٣٥٣- كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٧٤.

٤- المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٣٥- ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص٢٢٥. ابن إياس: المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص٦٠٠.

٥- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٤-١٠٥١- ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٢٤٥- القرماني: المصدر نفسه، ص ٢١٠- ابن العماد: شذرات، ج ٧، ص ٦٥- لامب: تيمورلنك، ص ١٢٥.

٦- العسقلاني: الدرر، ج ٢، ص ٣٥٨.

القلانسي الشافعي أسره المغول نوبة غازان (ت ٧٣٦ هـ)[١].

- شرف الدين أبو طالب عبد الرحيم بن محي الدين بن محمد بن الشيخ العجمي[٢].

- بهاء الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن قاضي القضاة عز الدين.. أبي عمر المقدسي، أسره المغول وعمره عشر سنين وبقي ببلاد الشرق مدة ثم تخلص ووصل إلى أهله ت ٧٣٧ هـ /١٣٣٦[٣].

إن غياب الفئات المثقفة من الجماهير، وغياب الطبقة العاملة والحرفية نتيجة للقتل أو للأسر عرض المنطقة ولفترة طويلة إلى مرحلة من الضعف والعجز، جعلها غير قادرة فيما بعد على مواجهة المصاعب السياسية الخارجية، والاضطرابات الداخلية، مما جعل المنطقة تتعرض لاحتلال جديد هو الاحتلال العثماني للمنطقة.

ز - التنظيمات والحركات الشعبية:

وجد الشعب نفسه في هذه الفترة بلا حماية ولا سند لأن النظام السياسي ارتكز على قوانين عسكرية ومدنية، وهاتان القوتان لم تهتما بمصالح الشعب قدر اهتمامها بمصالحها الذاتية، لذلك وجد نفسه مضطراً لتكوين قوات محلية ذات سمة شبه عسكرية لحماية عامة الناس من قاطني المدن[٤]، فعرفت مدن الشام منظمات اجتماعية متعددة منها منظمة الأحداث، الفتوة، وأحياناً وجدت ألفاظ زعار، حرافيش وهذه الألفاظ تدل على أن هؤلاء كانوا فرقاً من منظمات كبيرة كالأحداث وغيرها، وقد برز دور هذه المنظمات أحياناً خلال الاضطرابات السياسية، وخلال الاجتياح المغولي لبلاد الشام، فقامت بالدفاع عن السكان وأحياناً شاركت بالحملات العسكرية الإسلامية ضد العدو الخارجي سواء الفرنجي أو المغولي، إضافة إلى أعمال أخرى أضرت بالمجتمع كثيراً.

وكلمة الأحداث مرادفة للفتوة في اللغة أصلاً، والظاهر أن حركة الأحداث من فروع الفتوة وبدأ استخدام هذه الكلمة في البلاد الإسلامية، قبل القرن الخامس للهجرة، وذلك إثر استيلاء الفاطميين على أواسط بلاد الشام بعد أن أصبحوا في آسيا ومصر[٥]. ثم ازدادت هذه الحركة أو التنظيم اتساعاً وأكثر ما اشتهر من أحداث في بلاد الشام خلال تلك الفترة

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٨-١٧٥- العسقلاني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٨.

٢- الذهبي: ذيول العبر، ص ١١٥- ابن حبيب: تذكرة، ج ٢، ص ١٠٩.

٣- الدمشقي: الوفيات، ج ١، ص ٣٠.

٤- زعرور: الحياة الاجتماعية، ص ١٣٥.

٥- كاهن (كلود): الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال القرون الوسطى ترجمة عربية، مجلة الاجتهاد – العدد السادس، ١٩٩٠م، من ص ١٠٥-١١٧-٢٠٦- زعرور: المرجع نفسه، ص ١٣٨.

أحداث مدينة حلب، وقد ورد ذكر الأحداث في زبدة الحلب في تاريخ حلب لكمال الدين عمر ابن العديم مما يدل على استمرار دورهم السياسي في المنطقة[1].

وكان تسليح هذه التنظيمات إما من الضرائب المفروضة، أو من التبرعات الطوعية أو الإجبارية لبعض أصحاب الأموال، إضافة لامتلاك بعضهم سلاحاً خاصاً به[2].

وكان للأحداث تنظيمهم ورؤساؤهم، إضافة إلى مرتبة النقيب والمقدم، وكانوا يقومون بأعمال كثيرة منها فرض الضرائب، حفظ المدن داخلياً وخارجياً[3].

وفي فترة قدوم الحملات المغولية للمنطقة لم نلاحظ استخدام كلمة الأحداث كثيراً في المصادر التي بين أيدينا وإنما نلاحظ استخدام مصطلحات أخرى كالزعار والشطار والحرافيش إضافة إلى الفتوة. وإذا كان الاجتياح المغولي للعراق قد سبب ركوداً للفتوة هناك، فإنها انتقلت إلى بلاد الشام عن طريق الخليفة العباسي المستنصر بالله الثاني الذي توج في مصر خليفة فقد نقل معه طقوس الفتوة وهذا ما أكده مجموعة من المؤرخين حين أكدوا أن الخليفة ألبس الظاهر سراويل الفتوة بحضرة الأكابر، ثم ألبسها للمماليك وهذا يدل على رواجها ببلاد الشام ومصر[4].

وقد أكد وجود الفتوة واستمرارها في بلاد الشام عدة مسائل منها ما جاء في كتاب السبكي في الفتاوى حيث عرضت عليه مسألة كالتالي:

«ما يقول السادة العلماء رضي الله عنهم في هذه الفتوة التي فشت فظهرت في هذا الزمان وصورتها أن قوماً يجتمعون في بيت أحدهم فإذا اجتمعوا وأخذوا مجالسهم قام نقيبهم وأنشد أبياتاً تتضمن استئذانهم في شد وسطه فيأذنون له، ثم يأخذ بإحدى يديه شربة فيها ماء ويأخذ بيده الأخرى ملحاً ويخطب خطبة... ثم يضع الملح في الماء ويرفع الشربة ثم يقوم زعيم القوم وهو الذي يلبسهم سراويل الفتوة، فيجلس وسط القوم ويقول له النقيب من يطلب فيسمي من يريد من الحاضرين فيقومون واحداً واحداً كلما قام أحدهم شد الزعيم وسطه وأوقفه»[5].

إضافة إلى الفتوى التي أفتى بها ابن تيمية، فقد وجه إليه سؤال من الناس، هل للفتوة أصل

١- ابن المعمار الحنبلي: (محمد): الفتوة، بغداد، ١٩٦٠، ص ٣٧-٤٨- (مقدمة المحقق).

٢- مصطفى (شاكر): التحركات الشعبية وزعماؤها في دمشق، مجلة كلية الآداب والتربية، الكويت العددان الثالث والرابع، ١٩٧٣ ص ١٩-١٧٤-٢١٣.

٣- الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص ٨٠.

٤- ابن المعمار الحنبلي: المصدر نفسه، ص ٨٣-٨٤ (مقدمة المحقق) ينظر المقريزي: السلوك، ج ١، سنة ٦٥٩ هـ/.

٥- السبكي (تاج الدين): فتاوى السبكي، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٣٥٥ هـ ص ٥٤٨-٥٤٩-٥٥١.

من الشريعة أم لا؟ وهل أحل أحد من الصحابة أو التابعين أو من جاء بعدهم من أهل العلم هذه الفتوة، فأجاب ابن تيمية بأن لباس الفتوة وإسقاء الملح والماء باطل أصل له، ولم يفعله أحد لا الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا أحد من الصحابة، إضافة إلى نفي أصل اللباس، ولم ينكر ابن تيمية الفتوة، ولكنه أنكر نسبتها إلى الرسول والصحابة والتابعين بينما أكد كاهن أن ابن تيمية حارب الفتوة[1].

ولم يقتصر الهجوم على المظاهر والرسوم لأصحاب الفتوة على ابن تيمية فقط بل شاركه فيها ابن الوردي فقد قال فيهم، لأنهم مردة وشياطين، وأنهم أهل ضلالة وجهالة فيقول في إحدى تعليقاته: «لقد غاظني حتى هاضني، وحنقني حتى خنقني، ما أحدثه أهل الجهل والابتداع، وسكت عنه العلماء حتى شاع في الرعاع وذاع، وهي البدعة التي يجب إعفاء رسمها، والنكرة المعروفة بالفتوة وهي ضد اسمها فعكف عليها أتباع الضلالة، ودعا إليها الجهال وأهل البطالة يجمعون لها الجموع من الأنباط ويحضرها المرد أو أهل اللواط، ومنهم من يتصابى على سنه، ومنهم من يمشي على بطنه فإن تنحنح ذو سطوة أجابوه بسكين وتكاثروا عليه، وأن أضمرت كلمة الحق ظهروا، فما أحقهم بالنفي عن الجنس، وما أولاهم بالكبس، وجعلهم كأس»[2].

ضمت الفتوة في هذه الفترة عامة الناس بما يسمى بالرعاع، إضافة إلى أصحاب الحرف والصناعات والمهن المختلفة مثل الحياكة، الحجامة، النجامة، الكناسة، ثم تطورت الفتوة حتى أصبحت مثل نقابات العمال حالياً[3].

أن الأوضاع السياسية التي سيطرت على المنطقة وما رافقها من الاجتياح العسكري المغولي لم يحد من نشاط هذه التنظيمات والحركات الشعبية بل دفعت الفتيان والأحداث إلى التدرب على استخدام السلاح وفق طقوس خاصة بهم. واستغل هؤلاء الأحداث والشطار الأوضاع السياسية للمدن في ظل الحكم المملوكي وقاموا بتحقيق مآربهم الخاصة، ففي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م قام كل من الأحداث والشطار بالقتل والنهب في حلب لخلوها من العسكر، وقد لمع أسماء بعض الرؤساء مثل نجم الدين أبو عبد الله بن المنذر، وعلي بن الأنصاري، وأبو الفتح يوسف بن معالي، فقتلوا ونهبوا الكثير من السكان، وظلوا يتحكمون بالمدينة حتى وصلها

١- عبد اللطيف (محمد فهمي) الفتوة الإسلامية، دار الزيني للطباعة والنشر، ص ٤٨-٤٩- كاهن: المرجع نفسه، ص ١٨٣.

٢- عبد اللطيف: المرجع نفسه، ص ٥٠.

٣- عبد اللطيف: المرجع نفسه، ص ٥١-٥٢.

الأمير فخر الدين الحمصي، والأمير حسام الدين العينتابي ومعهما عساكر كثيرة، فلما وصل العسكر المدينة هرب رؤساء الأحداث وتركوا المدينة[1].

من خلال تتبع الحوادث التاريخية في المصادر نلاحظ حلول كلمة الزعار بدل كلمة الأحداث ابتداء من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي/ والزعار تعني لغوياً المقاتلة الذين يظهرون ويختفون فجأة، وهذا يعني أن ظهورهم مرتبط بظهور الفتن والأزمات، وقد نشط الزعار في الأحياء الفقيرة والأشد صلة بالأرياف[2]، وكان معظمهم من الشباب، وكان لهم شكل مميز من حيث اللباس، ونموذج الشعر، فقد سموا نتيجة لشعرهم باسم قرعاني، إضافة لارتدائهم أثواباً على أكتافهم كشكل من أشكال البزات الرسمية، وعموماً فقد أطلق عليهم أسماء مختلفة مثل الأوغاد، الناس الأشرار، غوغاء الزعران، غوغاء الحارات، أوباش الزعران، وكلها تعابير منحطة[3].

ومثلما كان لقرائنهم من الأحداث رئيس، وهو الزعيم الذي كان يعين باختيار من الأمير فقد كان لهم مقدمون في كل حي ويسمون بالكبار[4].

والحديث عن الزعار يتمثل في موقفهم من تجاوزات السلطة المملوكية وأعوانها المالية والاقتصادية وحتى السياسية منها. إضافة إلى جعل مصالحهم في مقدمة مطالبهم ففي سنة ٧٩١ هـ /١٣٨٨م وفي أثناء القتال بين يلبغا الناصري والأمراء قام زعار دمشق بمعونة التركمان في القتال وبنهب أعيان دمشق من الأجناد، إضافة إلى نهب الحوانيت واستمروا في هذا العمل أياماً اختلف المؤرخون في عددها، فبعضهم قدرها بسبعة أيام وبعضهم بأربعة عشر يوماً[5].

وقد ظهر في هذه الفترة تنظيم شعبي آخر مغاير للزعار وهو الحرافيش، ووصفهم بعض المؤرخين بالزعار والعياق والرعاع أو الدهماء أو العوام، الحثالة العامية، أو الجعيدية، أو الأوباش، أو أراذل السوقة، وقد وصفهم بعض المؤرخين بأنهم ليسوا إلا نهّابة، وحرامية، ومناسير، وعياقاً وفديوية وسراقاً وغيرها من الألفاظ الكثيرة.

لذلك من المتعذر الربط بين الحرافيش والزعار. إذ تباينت الأدوار بين التنظيمين واختلفت،

١- اليونيني: المصدر نفسهن ج ١، ص ٤٣٩ – النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٤٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٣١ – ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج ٢، ورقة ٨٤- ابن الطباخ: أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٢٤٥.

٢- النجار (محمد رجب): حكايات الشطار والعيارين في التراث الشعبي – الكويت، أيلول، ١٩٨١ ص ١٨٩.

٣- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٢٣٨.

٤- كاهن: المرجع نفسه، ص ١١٩- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٢٣٦.

٥- ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٩، ص ٦٥١.

فالزعار كانوا يقومون أحياناً بالدفاع عن الشعب ضد تجاوزات السلطة، ولم يقم الحرافيش بهذه المهمة[1].

وجمع بعض المؤرخين بين الحرافيش وطوائف اللصوص والنهابة والخدافة، وأنهم استمالوا إلى فئة من اللصوص في بعض الفترات، وأشار ابن تغري بردي أن الحرافيش كانوا يتلصصون عند مرافقتهم للجيوش المتجهة للقتال، أو إبان الفتن الداخلية، فالظاهر بيبرس رتب على أبواب إنطاكية جماعة من الأمراء لمنع الحرافشة من الخروج بشيء مما نهبوه، وأخذه منهم، وقد أطلق على الذين رافقوا الجيوش حرافشة المسلمين وكانوا عبارة عن فقراء الصوفية[2].

كما أنهم اشتركوا في الحملة التي سيرت ضد حصن الأكراد سنة ٦٦٩ هـ /١٢٧٠م وقد قاموا بعمل أدى إلى قتلهم، ذلك أن السلطان كان قد وقع الهدنة على حصن الأكراد والمرقب، فحدثت أشياء أدت إلى فسخ الهدنة مع بيت الاسبتار، فقرر السلطان حماية بلاد الهدنة، ووصى بهم وحضر رسول حصن الأكراد يسأل الوصية، فأعطاهم علماً برنكة فقام أحد الحرافشة بالعبور على بستان بقرب تل خليفة المجاور للحصن ومعه رفاقه، فأخذوا منه شيئاً لا قيمة له، فضرب المقدم الفرنجي رقاب بعضهم وأسر بعضهم الآخر[3].

نستطيع القول إن الحرافيش فئة من الطبقات الدنيا كثيرة العدد، وصفوا بأنهم أوباش، وأنهم خطر على التيار الصوفي، وقد استغلت هذه الفئة تشجيع الحكومة للتيار الصوفي وانخرطوا في سلكه طمعاً في رزق ثابت كان يوقف على الربط والخوانق، إضافة إلى التبرعات والصدقات والمساعدات. وقد كان أكثر هؤلاء من سكان الأرياف الذين لجؤوا إلى الزوايا لعدة أسباب منها سياسية تتمثل بعدم الاستقرار الداخلي، واجتياح العدو المغولي لقراهم، واقتصادية مرتبطة بالضرائب والمكوس وكثرة المغارم، إلى جانب أساليب التعذيب والقهر، لكن انخراطهم في سلك التصوف لم يمنعهم أبداً من القيام بمهام أخرى إضافية لكسب قوتهم، ومما يدل على أنهم كانوا عاطلين عن العمل (متسولين) تعريف أحد المؤرخين لهم حيث قال عن الحرفوش إنه العامل الذي يعمل بأجره اليوم عملاً غير ثابت وخصوصاً أعمال الفلاحة[4].

وكان الحرافيش من العناصر الشابة القوية البنية، وبما أنهم أتوا من القرى فلم يعرفوا

١- النجار: المرجع نفسه، ص ١٧٩- زعرور: المرجع نفسه، ص ١٤٤.

٢- ابن الطباخ:/ المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٨- النجار: المرجع نفسه، ص ١٨٤.

٣- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٣٢٥.

٤- النجار: المرجع نفسه، ص ١٨٤-١٨٨-٢٢٣- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ١٧١-١٧٢- زعرور: المرجع نفسه، ص ١٤٤.

التخصص في المهن والحرف لذلك اضطروا إلى التسول والالتجاء إلى زوايا الصوفية[1]. وقد ذكر السبكي ذلك وخاصة عن الاستجداء بين الحرافيش ما نصه:

((كثير من الحرافيش اتخذ السؤال صنعة فيسألون عن غير حاجة ويقصدون على أبواب المساجد يشحذون ولا يدخلون للصلاة معهم))[2].

وقد وجد الحرافيش في جميع المدن مثل دمشق، حلب، القدس، حماة، حمص، وسكنوا في المنازل والأكواخ والمساجد وحتى في الشوارع، وكان في القدس ممر يسمى بممر أو طريق الحرافيش.

ومثلما كان للتنظيمات الشعبية السابقة رؤساء أو مسؤولون يقودون التنظيم، كان للحرافيش رؤساء أيضاً، فالمسؤول عنهم يقال له سلطان الحرافيش وحظي بمكانة هامة عند الحكومة[3].

وتمثلت نشاطاتهم العسكرية في اشتراكهم في وقعة حمص سنة ٦٨٠هـ /١٢٨١م بين المغول والمسلمين، وعندما لاح النصر للمغول استغل الحرافيش الوضع وقاموا بنهب الأثقال وطاقات العسكر من الأقمشة وخزائن السلاح فأدى ذلك إلى فروغ صناديق الخزانة[4]

وقاموا بأعمال غير مستحبة تجاه سكان دمشق عندما علموا بقدوم غازان سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م فقد استغلوا الفوضى والاضطرابات في المدينة وقاموا بالهجوم على البساتين وكسروا أبوابها، وسرقوا الأشغال الخشبية والأواني، كما قلعوا الشبابيك والأبواب وباعوها بأثمان رخيصة، ولم يهدأوا حتى صادروا الناس بالأموال الكثيرة[5]

وقد دل عملهم الذي قاموا به سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م قبل وقعة شقحب وبعدها على عدم ميلهم لصالح جهة معينة، وإنما كانوا يدعمون من يتكسبون منه، فقد قاموا بأعمال السلب والنهب تجاه سكان المدن و خاصة مدينة دمشق، إذ هاجموا البساتين وقطعوا المشمس قبل أوانه وخربوا محاصيل الفول، والقمح والباقلاء وسائر الخضروات، فأخافت هذه الأعمال المسافرين والتجار فانقطعت الطرق من جهة الكسوة، وإثر انتصار المسلمين على المغول في

١- زعرور المرجع نفسه، ص ١٤٥- النجار: المرجع نفسه، ص ١٨٢.

٢- السبكي: معيد النعم، ص ١٣٦- النجار، ص ١٨٢.

٣- ابن صصري: المصدر نفسه، ص ٦- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٢٧٠.

٤- العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٠- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٣٠٥ – لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٢٧٢.

٥- النويري: المصدر نفسهن ج ٣١٢، ص ٣٨٧- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٧- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٩- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٧٢.

المعركة قام بعض الأفراد الذين أطلق عليهم اسم الأراذل وهم الفئة الدنيا من التنظيم بقتل الكثير من المغول المنهزمين وسلب ما كان معهم[1]. وقد عبر عن ذلك ابن تغري بردي حيث قال: «حتى أن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا عدة غنائم»[2].

عاش الحرافيش كما ذكرنا آنفاً من مورد الغنائم والسلب والنهب، عاشوا على الهبات السخية المقدمة من قبل السلاطين والأمراء والأغنياء، وانضموا إلى الفقراء في أزمان المجاعات ليحصلوا على طعامهم من إحسان السلطة، إضافة إلى تقديم المعونة لهم من الواردين على المنطقة ففي سنة ٧٣٢ هـ /١٣٣١م وعندما قدم سفراء المغول قدموا الهدايا للمتصوفة والحرافيش[3].

وقد تعرضوا للطرد عند إخلالهم بالأمن ففي عهد أرغون شاه سنة ٧٤٨ هـ /١٣٤٧م أوقف أحد ذوي الثروة وقفاً لإعانتهم، وفي إحدى المرات قاموا باختطاف الخبز من الخبازين ولشدة الغلاء لم يستطع أحد ضبطهم فقام أرغون شاه بنفي بعضهم إلى حمص وحماة وحلب، وقام بتشويه بعضهم، وإعدام آخرين، وقد وصفت هذه الحادثة شعراً فقيل:

كان الغلا يغلو فأما إذا ... أصبح ناراً قلت ذا يغلي

وأصبح الحرفوش ذا كسرة ... عن طلب الكسرة في شغل

من يطلب الخبز ومن يشتهي ... وهو بقطع اليد والرجل[4]

وبصرف النظر عن هذه الأعمال فإن السلطة استطاعت تجنيدهم كقوات مساعدة في حروبها الداخلية والخارجية، ضد أرمينيا وغيرها، وتمردوا على الأوامر في بعض الأحيان أثناء الحملة المملوكية سنة ٧٣٨ هـ /١٣٣٧م ومحاصرة إياس، قام نائب حلب بمنع الأمراء والعساكر من دخول المدينة ريثما يتمكن من صنع زحافات يستطيع بها دخول المدينة دون قتال كبير، لكن الحرافيش رفضوا هذه الخطة وتضامنوا مع العسكر وأثخنوا بالكلام مع نائب حلب وأسمعوه كلاماً غير مستحب منه: «يا مخاطر على السلطان، وأنت أكلت البراطيل من صاحب سيس، ومنعتنا أن نزحف»[5]. ثم قاموا باختراق البرج مع الجيش بدون أمر

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٤، المقريزي: المقفى، ج ٧، ص ١٨٤- العيني: المصدر نفسه، ص ٢٤٥- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٦٣- دهمان: ولاة، ص ١٣٨-١٤٢.

٢- ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٦٣.

٣- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٢٧٠.

٤- الصفدي: تحفة ذوي الألباب، ج ٢، ص ٢٧٤- دهمان: المرجع نفسه، ص ١٩٦- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٢٧٠.

٥- البوسفي: نزهة الناظر، ص ٣٩٨.

أمر نائب حلب أرقطاي الأمر الذي جعل الأرمن يقتلون الكثير منهم، فوبخ نائب حلب الأمراء بقوله: «كيف سمعتم من السوقية والحرافيش»[1].

أما إشارات ابن بطوطة على تنظيم الحرافشة فتظهر بأن قيادة التنظيم قد ظهرت واضحة في وقت متأخر والشيخ الأول الذي ظهر في التواريخ هو أيمر علي (ت ٧٩١ هـ /١٣٨٩م) الذي كان يدعى: (شيخ طائفة المتسولين) - الجعيدية - وسلطان الحرافيش، كما تذكر المصادر الشيخ عبد الله شيخ الحرافيش (ت ٨٠١ هـ) أثناء توزيع الصدقات[2].

وانضم إلى سلكهم شيوخ كبار مارسوا التدريس في المدارس فالشيخ علم الدين أحمد بن يوسف ابن شكر (ت ٦٨٨ هـ) كان من الوجهاء ومن بيت علم ورياسة، درس في بعض المدارس، ثم أقبل على الحرفشة وصحبة الحرافيش والتشبه بهم في اللباس والطريقة وأكل الحشيشة وقد نهاه اولاده عن ذلك، لكنه لم يمتنع، وإن دلت سيرة هذا الشيخ فإنما تدل على أننا لا نستطيع التعميم فيما قاله المؤرخون والكتاب عن الحرافيش أنهم متسولون، ورعاع، ليس لديهم أعمال سوى أعمال يومية، بل انضم إليهم في بعض الأحيان كبار المشايخ وهذا الدليل يؤكد ذلك[3].

وقد شارك الحرافيش السكان حياتهم اليومية بما فيها المهرجانات، الاحتفالات، الدعوات، فعند القبض على حاجب الحجاب بدمشق سنة ٧٥٩ هـ /١٣٥٧م خرج العامة من الناس إلى جانب الحرافيش يدعون له[4].

وقد لاحظت من خلال تتبعي للحوادث سنة بسنة، عدم اهتمام المؤرخين وخاصة الحوليين بتدوين أعمال هذه التنظيمات بقدر اهتمامهم بتدوين الحوادث السياسية، فالحوادث الاجتماعية لم تحظ عندهم إلا باهتمام قليل لا يتناسب أبداً مع اهتمامهم بالسياسة، ولولا مشاركة أفراد هذه التنظيمات في الحملات العسكرية، أو الاحتفالات، أو المجاعات لما أتوا على ذكرها، والدافع لما ذكرت أنني لم أعثر على معلومات تدل على أحوال الحرافشة بعد سنة ٧٥٩ هـ /سوى ما ذكر أنه سنة ٨٠٣ هـ وإثر خروج تيمورلنك من المنطقة قام الأراذل في دمشق وهاجموا الناس، ونهبوا وقتلوا واستولوا على ما بقي من متاع، واستمر الحال حتى عاد

١- اليوسفي: المصدر نفسه، ص ٣٩٩.

٢- المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٥٧٧ – لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٢٧٤.

٣- ابن كثير: المصدر نفسهن ج ١٣، ث ٣١٤- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٣٧٨-٣٧٩- وفيات سنة ٦٨٨ هـ.

٤- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٦٠.

إليها النائب تغري بردي بعد أكثر من شهرين من خروج الغزاة[1].

وعلى الرغم من وجود الحرافيش في المجتمع والدور الذي شغلوه أثناء الاستقرار الأمني للمنطقة أو أثناء قدوم الحملات المغولية فإن السلطة لم تعرهم الاهتمام الكافي، ولم يتعد دورهم التأثير الهامشي فلم يكونوا تنظيماً موحداً، لذلك غالباً ما استغل أمراء المماليك الحرافيش لصالحهم ووجهوهم لخدمة أغراضهم الخاصة.

قاد عدم الاستقرار إلى انعدام الأمن فظهرت أشكال من العنف والإجرام تمثلت في اللصوصية وأعمال السرقة، وأعمال القتل، وقد ساعد على وجود هذه الأشكال عدة عوامل منها كثرة العاطلين عن العمل إضافة إلى الفقر. فقد نشأ تهديد للمجتمع ليس عن العامة من الناس وإنما من قبل عناصر الرعاع التي قاومت الذوبان في المجتمع سواء دينياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً وقامت بتنظيم عناصر الهاربين والعبيد والجنود والمبتزين وغير ذلك والنتيجة وجود العنف الإجرامي[2].

لذلك وجدنا كلمات المناسير الحرامية وغير ذلك من الألفاظ التي دلت على عصابات العنف وظهرت هذه العصابات خصوصاً في أوقات المحن الاجتماعية والسياسية، ففي سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦٠م اقتحمت أسواق مدينة دمشق عصابة مكونة من أربعين رجلاً ظنها أهل دمشق أنها موكب زفاف[3].

كما استغل المجرمون قدوم غازان سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م وخرجوا من السجون وامتدت أيديهم بالنهب والفساد في دمشق وذلك بسبب انعدام الأمن واضطرابه نتيجة لضعف الوجود السياسي والعسكري في المدينة[4].

خلاصة القول أن التنظيمات الشعبية بكافة أشكالها الزعار، الأحداث، الحرافيش، لم تأخذ دورها الطبيعي في مكافحة العدو المغولي المتسلط على المنطقة، بل كان هم هذه التنظيمات تأمين سبل الحياة اليومية لها، بينما أخذ الزعر دوراً مهماً في الفترة الزمنية اللاحقة.

هـ - الاستباحة الأخلاقية:

نتيجة لانعدام الاستقرار الاجتماعي في المنطقة، استشرى الفساد الأخلاقي، وقد تزامن زيادة

١- العلبي: تيمورلنك، ص ١٩١.

٢- زعرور: المرجع نفسه، ص ١٤٧- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٢٦٠.

٣- لابيدوس: ص ٢٦٠.

٤- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٧- المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣، ص ٨٨٩ – المقفى، ج ٧، ص ١٧١.

انتشار هذا الفساد مع دخول المغول للمنطقة، إذ رافق دخولهم هتك أعراض، فجور، فساد، ازدياد البغاء، وقوبل هذا الفساد بمعارضة شديدة من قبل بعض فئات المجتمع كالعلماء وأهل الدين، كما قوبل بمعارضة وقمع من بعض سلاطين المماليك، حيث انتشر الخمر، والحشيس، وبيع في مناطق معروفة وخاصة في دمشق، كما أديرت الخمارات من قبل بعض أهل الذمة وقلة من المسلمين إضافة إلى أنهم قاموا بشربه وتوزيعه إبان دخول المغول دمشق.

أما بالنسبة للبغاء فإنه لم تخل مدينة من مدن العالم كله من دور للبغاء وأمكنة للفساد، ولكن يختلف مدى انتشارها من مدينة لأخرى، فمدن الشام في هذه الفترة بالذات لم نلحظ فيها انتشار البغاء بشكل كبير وذلك من خلال المصادر التاريخية التي أمدتنا بمعلومات عن هذه الفترة. وقد انتشرت الاستباحات الأخلاقية والفجور عن طريق بعض أفراد الجيش، إضافة إلى بعض أفراد المجتمع الشاذين.

وعند دخول المغول للمنطقة ارتكبوا أفعالاً شنيعة من هتك الأعراض والفساد وغيره من هذه الأفعال غير الأخلاقية. ولم ترتكب هذه الأفعال من قبل واحد من قواد حملاتهم فقط بل من كل قواد الحملات الذين قدموا إلى المنطقة، فعند قدوم غازان إلى دمشق سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م ارتكب أفراد جيشه الفواحش بالجامع الأموي، حيث فجروا بالنساء، وقاموا بشرب الخمور وغير ذلك من الأفعال القبيحة[1].

ولم يقتصر القيام بهذه الأفعال القبيحة على أفراد جيش المغول، بل شارك به بعض رجال السياسة في بلاد الشام، فعثمان السبتاري رجل من أهل قلعة حماة استغل الظروف السياسية السلبية التي مرت بها المدينة وقام باستباحة الحريم، مع سفك الدماء، وقد شاركه بذلك زميل له غدر به فيما بعد، وانفرد عثمان بحكم حماة وتلقب بالملك الرحيم، وظل على أفعاله هذه حتى اعتقل ونفي[2].

ولم نعد نسمع أي ذكر لمثل هذه الأفعال في المصادر التاريخية، إلا عند قدوم تيمورلنك للمنطقة فقد تعرضت كل مدن الشام التي كانت في طريق الحملات المغولية إلى مثل هذه الاستباحات الأخلاقية كحلب، وحماة، ودمشق. ففي حلب كان المغول يأخذون المرأة ومعها ولدها الصغير فيلقونه من يدها ويفعلون بها الأفعال القبيحة، وقد احتمت معظم النساء

١- ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر، ص ٢٨- الصفدي: تحفة ذوي الألباب، ج ٢، ص ٢٠٤- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩٣- دهمان: ولاة، ص ١٠٢.

٢- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٤.

بالجوامع ظناً منهن أن ذلك يحميهن من أيدي هؤلاء المغول، وكانت تطلي وجهها بطين أو شيء حتى لا ترى بشرتها، ولكن المغولي كان يأخذ المرأة ويغسل لها وجهها ويفجر بها على مرأى من أهلها دون أن يستطيع هؤلاء تخليصها[1].

وكانت هذه الأعمال في حماة أخف ثقلاً عن مثيلاتها في حلب ودمشق، لكنها مع ذلك تعرضت لمثل هذه الأعمال الدنيئة، فقد قام ابن تيمورلنك ميران شاه مع أصحابه بالفجور من غير مراعاة للأعراض والأخلاق[2].

ولم تريكب في منطقة من مناطق العالم ما ارتكب في دمشق من قتل وسفك الدماء وأسر للرجال والتهتك بالنساء، فقد كان أمراء المغول يأخذون الأولاد والنساء ويقسمونهم على أنفسهم فيشاهد الرجل المعذب امرأته وهي توطأ وابنته وهي تنض بكارتها، وولده وهو يلاط به، فيصير هو يصرخ من ألم العذاب، وابنته وولده يصرخون من ألم إزالة البكارة وإتيان الصبي وكل هذا نهاراً أو ليلاً من غير احتشام ولا تستر، ثم إذا قضوا وطرهم من المرأة والبنت والصبي طالبوهم بالمال وأفاضوا عليهم أنواع العقوبات وأفخاذهم مضرجة بالدماء[3].

لقد عوقب أهل بلاد الشام أشد عقوبة من قبل هؤلاء المغول الذين ادعوا الإسلام، والذين اهتدوا إليه في الربع الأخير من القرن السابع الهجري، ومن المفروض ان يكون هؤلاء أنصاراً لهذا الدين يدافعون عنه، لا أن يهاجموا معتنقيه، فالإسلام دين العفة والأخلاق، فكم فتح المسلمون بلاداً، وكم وصلوا إلى مناطق بعيدة، لكنهم مع ذلك لم يتعرضوا لأهلها أخلاقياً، فهؤلاء عرفوا الدين القويم، بينما المغول لم يعرفوه إلا ظاهرياً ولم يمتثلوا لأوامره ونواهيه، ولو ملكوا ذرة من دين لما فعلوا ذلك.

١- البغاء:

لقد انتشر المجون والبغاء في هذه الفترة وكثر المستهترون، وظهر إلى العلن مجون النساء وفجورهم ولم يكن المجون وليد فترة البحث، وإنما انتشر في بلاد الشام لفترة طويلة، وقد حاربه رجال السلطات المتتابعة التي حكمت المنطقة. غير أن قدوم المغول ساعد على زيادة المجون، ذلك أنهم يرون أنه طريقة لإلهاء أعضاء السلطة وعامة الشعب عن مقاومتهم وصدهم

١- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٣- العسقلاني: أنباء، ج ٤، ص ١٩٦ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٢٣-٢٢٤- العلبي: تيمورلنك، ص ١٣٢ – كرد علي: خطط الشام، ج ٢، ث ١٦٧ – لامب: تيمورلنك، ص ١١٩-١٢٠.

٢- المقريزي المصدر نفسه ج٣، ص١٠٣٥- ابن تغري بردي: المصدر نفسه ج١٢، ص٢٢٥- ابن إياس: المصدر نفسه ج١، ق٢ص٦٠٠

٣- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٥٠.

عن البلاد، فانتشرت بيوت البغاء في مناطق الشام ونلحظ ذلك عن طريق المناشير التي كان يصدرها السلاطين بمنع هذه البيوت.

ومن الملاحظ أن بيوت البغاء أخذت شكلاً علنياً، وقد فرضت حكومة المماليك على النساء المستهترات أو الخواطئ عقوبات إذا لم يرتددن عن هذه الأعمال الفاسدة، ففي سنة ٦٦٤ هـ /١٢٦٥م أمر الظاهر بيبرس بإغلاق الحانات والخواطئ بمصر والشام إضافة إلى إزالة أماكن المسكرات دلالة على أنها كانت منتشرة بشكل كبير، وأنها كانت تضر السلطة، وهي مظهر غير حضاري، وغير لائق لأمة عريقة في الإسلام[1].

كما أصدر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ /١٢٦٨م مرسوماً بإغلاق الحانات، وإمساك الخواطئ بالبلاد كلها سواء بالشام او بمصر ونفذ ذلك أفراد السلطة، حتى أن السلطان أمرهم بحبس النساء الخواطئ حتى يوافقن على الزواج، فنفذ أعضاء السلطة هذا الأمر، وسلبوا النساء كل ما معهن وسجنوهن حتى يتزوجن[2]. كما صدر مرسوم آخر سنة ٧٠٨ هـ/١٣٠٨م بإغلاق بيوت الزواني وكسر آلاتهم[3].

ولم يكن السلاطين وحدهم يقاومون أمكنة الفساد والاستهتار، بل قاومها ايضاً أفراد السلطة الباقون كنواب المدن الشامية، فنائب حلب سيف الدين أرقطاى أمر سنة ٧٤٥ هـ /١٣٤٤م بإغلاق هذه الأمكنة بعد أن ازداد الفساد فيها، ذلك أن هذه الأمكنة تؤثر على وضع المجتمع العسكري، فقد تجر هذه الأمكنة الكثير من ذوي النفوس الضعيفة، وقد يؤدي ذلك إلى استشراء الفساد في أنحاء البلاد الأمر الذي يدعو إلى ضعف الروح القتالية لدى العامة، ولدى أفراد الجيش في مقارعة الغزو المغولي[4].

ولم تآل السلطة جهداً في تتبع المنكرات وإبطالها، فقد بدأ الولاة سنة ٧٩٦ هـ /١٣٩٣م بإزالة بيوت البغاء من مكانها عندما علم هؤلاء بقدوم تيمورلنك للمنطقة ومحاصرته للرها، وفي ذلك دلالة على أنهم كانوا يعتمدون على نساء هذه البيوت في معرفة أشياء سياسية وعسكرية حول وضع المدن أثناء محاصرتها أو الاستيلاء عليها[5].

١- المنصوري: التحفة، ص ٥٦- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٦.

٢- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٣٥٠- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨٦.

٣- ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج ١، ص ٥٠٥ – الشوكاني: البدر الطالع، ج ١/ ص ١٦٨.

٤- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨٦.

٥- ابن قاضي: شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ج ١، ق ٣، ص ٥٠٤.

وبالرغم من محاربة السلاطين وأفراد السلطة لبيوت البغاء إلا أنها استمرت، ولم يستطع هؤلاء القضاء على هذه الظاهرة، وإنما استطاعوا الحد منها بين الفنية والأخرى.

٢- اللواطة:

ساد الانحلال الأخلاقي بعض فئات المجتمع لا سيما الفئة الغنية أو الحاكمة، وقد شجع على هذا الانحلال عوامل كثيرة منها الحملات المغولية المتكررة، وترف المماليك السلاطين منهم، واقتناء الجواري والعبيد والغلمان في بيوت سلاطين المماليك، إضافة إلى انشغال الحكومة بتجهيز الحملات العسكرية والإنفاق عليها. هذه العوامل ساعدت على انتشار الاستهتار بشكل ظاهر وجلي في المجتمع، فالأمير أحمد بن السلطان محمد بن قلاوون اشتهر بخلاعته واستهتاره، ولم ينتشر هذا الفساد بين أبناء الطبقة الحاكمة فحسب وإنما انتشر وساد بين فئات العلماء والأدباء حتى القادمين من خارج بلاد الشام.

ولم تكن هذه الأعمال الفاسدة ولدية فترة البحث، وإنما سبقت هذه الفترة بكثير منذ العصور السحيقة فقوم لوط ذهبوا بأجمعهم نتيجة هذه الأعمال القبيحة، وقد أنذرهم الله سبحانه مرات كثيرة بقوله «إتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين» وقال أيضاً: «أنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون». غير أن قوم لوط لم يرتدعوا عن مثل هذه الأعمال فأذهبهم الله تعالى من وجه الأرض[1].

ولم تتمثل بعض النفوس الضعيفة لهذه التحذيرات وإنما اقبلوا على هذه الشهوات، فالأمير أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون قام بهذه الأفعال القبيحة حيث أنه كان يعاشر أوباش الكرك، الأمر الذي جعل والده يستدعيه سنة ٧٣٨ هـ /١٣٣٧م إلى مصر، فعقد له على ابنة الأمير سيف الدين طاير بغا ظناً أن هذه يردعه عن ذلك، فعاد أحمد إلى الكرك ولم يرتدع عن أفعالهن القبيحة، فاستدعي مرة أخرى سنة ٧٣٩ هـ /١٣٣٨م لعلم السلطان بشغفه بواحد من أهل الكرك اسمه الشهيب وهو ابن خياط، فقد هام به غراماً، فصار أبوه يحصل الأموال من الناس بسبب كثرة الشفاعة التي كان يشفعها عند ابن السلطان ومما يأخذه من الأنعام، عندئذ أمر السلطان بعقوبة الشاب الذي كان يهواه حتى يحضر المال الذي وهبه له أحمد، لكن الأمير أحمد ما لبث أن تشفع له عند الأمراء[2].

١- سورة الأعراف: اية ٨٠-٨١ ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي الدمشقي): روضة المحبين ونزهة المشتاقين، حلب، دار الوعي، ١٣٩٧ هـ، ص ١٩٠.

٢- الشجاعي: تاريخ الناصر، ص ٤٧-٤٨ – المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٤٣٢-٤٦٧ – العسقلاني: الدرر، ج ١، ص ٢٩٤.

غير أن الأمير أحمد لم يتب عن هذه الأفعال حتى توجه الأمير طوغان سنة ٧٤٢ هـ /١٣٤١م فاحضره إلى مصر لكثرة شغفه بشباب أهل الكرك وانهماكه في معاقرة الخمر معهم. واستلم السلطة فترة ثم خلفه أخوه الصالح فعاد إلى الكرك، وعاد مرة أخرى إلى أفعاله القبيحة ولما حاصرته القوات المملوكية الموجهة من أخيه الصالح سنة ٧٤٥ هـ /١٣٤٤م وأرادوا اعتقاله كان لا يأكل شيئاً حتى طلب أن يأتوه بشاب اسمه عثمان فأتوه به فأكل[1].

وقد اختلفت أقوال العامة والفقهاء في عقوبة اللوطي فأحد الأقوال أنها أعظم من عقوبة الزنا، والقول الثاني أنها مثل الزنا، والقول الثالث أنها أقل منها، وقد قرر بعض الشافعية أن عقوبة الفاعل كعقوبة الزاني، وعقوبة المفعول به الجلد، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى القول بأن عقوبة اللوطي أشد وأقسى من عقوبة الزاني لإجماع الصحابة على ذلك، وقام بعض الخلفاء بإحراقهم كأبو بكر، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك. أما الله تعالى فقد توعدهم بالعقوبة في (١٠) سور من القرآن هي سورة الأعراف، الحجر، الأنبياء، الفرقان، الشعراء، النحل، العنكبوت، الصافات فقد قال في سورة الأعراف عن لوط: « فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ {٨٣} وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ {٨٤} »[2].

وفي سورة الفرقان: « يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً {٢٢} وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً {٢٣} أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً {٢٤} »[3].

فالله سبحانه وتعالى تقدم إليهم بالحجة ووعدهم بالعقاب، وكان هؤلاء هم السلف وإخوانهم في هذا العصر بعدهم على الخلف والأثر، وقد قيل في ذلك أشعار كثيرة منها:

فإن لم يكونوا قوم لوط بعينهم ... فما قوم لوط منهم ببعيد

وأنهم في الخسف ينتظرونهم ... على مورد من مهلة وصديد

يقولون لا أهلاً ولا مرحباً بكم ... ألم يتعدكم ربكم بوعيد

فقالوا بلى لكنكم قد سننتم ... صراطاً لنا في العشق غير حميد

١- أبو الفداء: المختصر، ج ٤، ص ١٣٦- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ٣، ص ٦٤٠- المقفى الكبير، ج ١، ص ٦٢٨-٦٣٠ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ١، ص ٢٣-٩٢-٩٣.

٢- سورة الأعراف، آية ٨٣-٨٤.

٣- سورة الفرقان، آية ٢٢-٢٤ – ابن قيم الجوزي: المصدر نفسه، ص ٣٥٣-٣٥٨-٣٦٠.

أتينا به الذكران من عشقنا لهم ... فأوردنا ذات العشق شر ورود

فأنتم بتصنيف العذاب أحق من ... متابعكم في ذاك غير رشيد

فقالوا وأنتم رسلكم أنذرتكم ... بما قد لقيناه بصدق وعيد

فما لكم فضل علينا فكلنا ... نذوق عذاب الهون ذوق مريد

كما كلنا قد ذاق لذة وصلهم ... ومجتمعنا في النار غير بعيد[1]

ورغم كل التحريم الذي أنزله الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، ورغم أحاديث الرسول الكثيرة في النهي عن اللواطة فإن بعض أفراد السلطة، أقدم على ارتكابها، ومنهم الشيخ الصفوي وهو من أمراء الظاهر برقوق، فقد ولي نيابة غزة سنة ٨٠٠ هـ /١٣٩٧م ثم نقل إلى حبس المرقب بسبب شكوى أهل القدس وتعرضه لأبنائهم وإكثاره من الفساد[2].

وأقدم العالم ضياء العجمي على هذه الأفعال، وكان من العلماء القادمين من خارج بلاد الشام. وقد كان في الخانقاه السميساطية، وكان يتهتك بالغلمان ويخرج عن طور العقل والعفة، فكان يمشي وفي يده خرقة من الرياحين فمن لقيه من المرد أدناها إلى أنفه فيمشها، ثم علق بصبي من أبناء الجند فكان يخرج إلى سوق الخيل ليشاهده إذا ركب[3].

وقد أقدمت السلطة على قتل من ارتكب هذه الأفعال الفاسدة كالفتح أحمد بن الثقفي، فقد اتهموه بأنه زنديق إضافة إلى اشتهاره بشرب الخمر واللواطة[4].

من الملاحظ أن العوامل السياسية، واضطراب الأمن في البلاد، وانعدام الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي كان له أثر في ظهور هذا التحلل الأخلاقي لدى بعض أفراد المجتمع، وكان لهذا التحلل آثار سلبية انعكست على المجتمع بكامله.

٣- حب الغلمان:

كانت ظاهرة هوى الغلمان موجودة في كل المجتمعات، كالمجتمع العراقي، والشامي، وغيره، ولكن لا نلحظ أنها كانت كثيرة الانتشار في مجتمع الشام بالمقارنة مع مجتمع

١- الإنطاكي: (داود): تزيين السواق في أخبار العشاق، دار حمد ومحيو، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م، ج ٢، ص ٣٣٢ – ابن ابي حجلة، شهاب الدين أحمد بن حجلة المغربي): ديوان الصبابة، دار حمد ومحيو، ط ١، ١٩٧٢م، ص ٢٤٥.

٢- ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ج ١، ق ٣، ص ٦٦٦ – العسقلاني: أنباء، ج ٣، ص ٣٩٤ – ابن تغري بردي: المنهل، ج ٦، ص ٣١٢- السخاوي: الضوء، ج ٣، ص ٣٠٨- ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٢، ص ٥٠٨.

٣- العسقلاني: الدرر، ج ٢، ص ٢١١ – الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ٣٠٠.

٤- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٥- المقريزي: المقفى الكبير، ج ١، ص ٦٣٩- العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٧.

العراق، ذلك أن ترف القصور وثراء الطبقة الحاكمة في العراق وكثرة الجواري والقيان هو الذي جعل هذه الظاهرة سهلة الانتشار هناك.

أما مجتمع الشام فقد واجه مشاكل سياسية كثيرة منها قدوم الصليبيين للمنطقة ومهاجمة مدن بلاد الشام بين الفنية والأخرى، الأمر الذي فرض عليها الوضع الحربي، وجعل معظم الأموال تصرف لتسليح الجيش وتدريبه، ثم قدم المغول للمنطقة فزادت الأعباء الحربية مما اضطر السكان للانشغال بصد الغزاة أكثر من انشغالهم بالهوى والحب.

وأكد الأطباء قاطبة بأن العشق مرض وسواس شبيه بالماليخوليا، يجلبه المرء على نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والمسائل. وكان له سببان نفسي وبدني فالنفسي الاستحسان، والفكر، والبدني، ارتفاع بخار ردئ إلى الدماغ.

أما الفلاسفة فلقد قرروا أنه يتولد في القلب ويتحرك وينمو، ثم يجتمع إليه مواد من الحرص، وكلما ازداد صاحبه في الاهتياج تمادى صاحبه في الطمع والحرص على الطلب حتى يؤدي ذلك إلى الغم والقلق. ويكون احتراق الدم عنده باستمالته إلى السوداء الذي يحصل له منها فساد الفكر المؤدي إلى زوال العقل وأحياناً يؤدي إلى الجنون.

فالعاشق لا يتفرغ في كثير من الأحيان إلى ممارسة صنائعه، كما أنه يبتعد عن القيم الأخلاقية وعن ممارسة الشعائر الدينية ويرتكب ما هو محرم. وقد جمع بعضهم بين حب المرأة والرجل حتى صور أحدهم ذلك حين قال:

أنا الرجل البصير بكل أمر	دخلت من التصابي كل باب
فهيو المرد والشبان قلبي	ولا يأبى مواصلة الكعاب

كما أن أرسطو عرفه حيث قال: «بأنه جهل عارض صادف قلباً فارغاً دق عن الأفهام مسلكه وخفي عن الأبصار موضعه وحارت العقول في كيفية تمكنه غير ابتداء حركته وعظم سلطانه من القلب ثم يتفشى على سائر الأعضاء فيبدي الرعدة في الأطراف.. حتى ينسب صاحبه إلى الجنون»[1].

كما ذهب جماعة من الأطباء بأن العشق اختياري لا اضطراري، فالمرء يجلبه لنفسه، ولو كانت المحبة لا تملك لم يتوعد الله بعض المحبين، الذين يريدون الفاحشة بالعذاب على ما لا يدخل تحت قدرتهم.

١- ابن قيم الجوزية: المصدر نفسه ص١٤٠-١٤١- ابن أبي حجلة: المصدر نفسه ص٢٤٢- الإنطاكي: المصدر نفسه، ج١، ص٢٤

كما أن بعض الفقهاء نهى عن النظر في وجه الأمرد فالنووي في المنهاج حرم النظر إلى الأمرد بشهوة أو بغير شهوة. وقد نقل عن الرسول أنه قال: لا تجالسوا أولاد الملوك فإن الأنفس تشتاق إليهم ما لا تشتاق إلى الجواري العواتق[1].

غير أنه رغم كل التحذير والتحريم من الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، والفقهاء إلا أن بعض القضاة والأعيان وقعوا فيه ومنهم ابن خلكان. فقد اتهم شمس الدين محمد ابن خلكان قاضي القضاة بأن له ميل إلى ابن صاحب حماة الملك المسعود بن الزاهر، وقد التهبت نار عشقه في قلبه، وكتم أمره حتى مرض واشتد به المرض، فأرسل الملك المظفر صاحب حماة ابنه إلى ابن خلكان فلما رآه وثب قائماً كأن لم يكن به مرض، فعرف الغلام أمره وأخبر والده بذلك فحجبه عنه، وقد قال ابن خلكان في ذلك أشعاراً رائعة منها:

يا سادتي أني قنعت وحقكم ... في حبكم بأيسر مطلب
أن لم تجودوا بالوصال تعطفا ... ورأيتم هجري وفرط تجنبي
لا تمنعوا عيني القريحة أن ترى ... يوم الخميس جمالكم في الموكب
لو كنت تعلم يا حبيبي ما الذي ... ألقاه من كمد إذا لم تركب
لرحمتني ورثيت لي من حالة ... لولاك لم يك حملها من مذهبي
قسماً بوجهك وهو بدر طالع ... وبليل طرتك التي كالغيب
وبقامة لك كالقضيب ركبت من ... أخطارها في الحب أصعب مركب
لو لم أكن في رتبة أرعى لها ... العهد القديم صيانة للمنصب
لهتكت سري في هواك ولذلي ... خلع العذار ولو ألح مؤنبي[2]

إلى جانب ابن خلكان ظهر ابن عبد الظاهر كعاشق ولهان أيضاً فقد أحب شاباً مغنياً اسمه نسيم وقد قال فيه عدة مقاطع شعر منها:

إن كانت العشاق من أشواقهم ... جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أتلو لهم يا ليتني ... كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

فرد عليه صاحب ديوان الصبابة ابن أبي حجلة قائلاً:

١- ابن أبي حجلة: المصدر نفسه، ص ٣٥-٢٤٦ – الإنطاكي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣١-٣٣٢.

٢- ابن شاكر: فوات الوفيات، ج ١، ص ١٠١-١٠٢- ابن أبي حجلة: المصدر نفسه، ص ١١٠ – الإنطاكي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٧-٣٣٨.

أن كنت في عشق النسيم متيماً ... وزعمت أن هواه ليس بمتلف

فأنا أقول لمن تحرش بالهوى ... عرضت نفسك للبلا فاستهدف

فقال ابن عبد الظاهر أيضاً في نسيم:

يا من غدا لي من عواصف ... هجرة الريح العقيم

أترى يطيب لي الهوى ... ويقال قد رق النسيم

فأجابه ابن حجلة

بالله أن رق النسيم وأخمدت ... نار تؤججها يد التبريح

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ودع العذول وقوله في الريح[1]

وقد فاز بعض العشاق بمعشوقه قبل حلول منيته ومنهم من مات بغصته:

من نال من دنياه أمنية ... أسقطت الأيام منها الألف

ومنهم من بات على وعد الحبيب مسلوب الرقاد بعيداً عن لقاء الردى، فهو يكذب قول الحبيب حيناً ويصدقه حيناً آخر ويجربه ويقول:

ما زلت منتظراً لوعدك سيدي ... في البيت ملتفتاً لقرع الباب

يا كاذباً وعده بلسانه ... من لي بعض لسانك الكذاب

وقد أدى الحب إلى النحول والذبول بسبب المعشوق، كذلك إلى هجرة بعض المحبين لمعشوقهم، فابن عبد الظاهر يقول: في هذه المناسبة:

أيها الصائد باللحظ ومن ... هو من دون الورى مقتضي

لا تسم طائر قلبي هرباً ... أنه من أضلعي في قفصي

وممن ترك معشوقه وهاجر عبد الله الدربندي ضياء الدين النجوي كان مولعاً بشاب يعاشره فترك بسببه الشام وهاجر إلى مصر[2].

وقد أدى الحب إلى القتل أحياناً ففي سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥١م أقدم شاب من أبناء دمشق على قتل إنسان يحبه، فلما وصل خبره إلى الوالي استقدمه وسأله فأنكر فعراه ليضربه، عندئذ تقدم إنسان كان يعشق ذلك الشاب وقال للوالي لا تضربه فإنه ما قتله وإنما قتلته أنا، وكان نائب دمشق ايتمش فأطلع على القصة فأمر بحبس الشاب القاتل، غير أن ايتمش لم يطل في

١- ابن أبي حجلة، المصدر نفسه، ص ١١٤-١١٥.

٢- العسقلاني: الدرر، ج ٢، ص ٣١١- ابن أبي حجلة: المصدر نفسه، ص ١١٤-١١٥-١٠٩٨-٢١٣.

نيابة دمشق بل أتى أرغون الكاملي فكان أول شيء عمله شنق العاشق بمقتضى المحضر المكتوب عليه[1].

وذكر عن ناصر الدين القلندري أنه كان يهوى شاباً من أولاد الجند بطرابلس وكان يكتب عليه وكان آخر ما تمثل به ومات عقبه سنة خمس وثلاثين وسبعمائة قول الصاحب بن عباد:

يا من وهبت له نفسي فهذبها ... ورمت تخليصها منه فلم أطق

أدرك بقية نفسي فيك قد تلفت ... قبل الممات فهذا آخر الرمق[2]

وقد فصل ابن صصري وضع الغلمان والمردان في هذه الفترة حيث قال:

«أما المردان، فما يحتاج حالهم إلى بيان في هذا الزمان، وليس الخبر كالعيان، كل واحد منهم يحب أن يكون معشوقاً، ويتمشى في السوق، على أهل الفسوق، وقد كانت الصبيان أحيى من البنات، فانعكست الأمور، وتغيرت الدهور، وانكشف ما كان مستور، حتى صاروا بالسقال والملابس في زي العرائس، يأتون الفاحشة مجهراً، ولا ينكر أحد عليهم منكراً، وأكثر الناس قد لبسوا ثياب العار، وافتخروا بالأوزار، ولا أحد على ولده يغار، وقد أبدلوا أعرافهم في هوى أغراضهم، وهذه أمور تقشعر منها الجلود ويشيب منها المولود، وقد رأينا في هذا الزمان ما لم نره وسمعنا فيه ما لا سمعناه، وأبصرنا عجائب، وشاهدنا غرائب، فلهذا الحال قلت الأرزاق، وكسدت بضائع الأسواق وقل نزول الغيث، وتقطعت أسباب الناس، وقت قلوب الملوك، وتجبر الغني على الصعلوك، فهلكت الرعية، وعظمت البلية، فسبحان الكريم المسامح الذي لا يعمل على عبد عصاه، سبحانه لا إله إلا هو»[3].

وقد قيلت أشعار كثيرة في حب الغلمان في هذه الفترة ومنها نقتطف:

وعارض قد لام في عارض ... وطاعن يطعن في سنه

وقال لي قد طلعت ذقنه ... فقلت لا أفكر في ذقنه

وقيل أيضاً:

شب وجدي بشائب ... من سنا البدر أوجه

كلما شاب ينحني ... بياض الله وجهه

وأيضا قال بعض مشايخ العصر:

١- ابن أبي حجلة: المصدر نفسه، ص ٢٦٧-٢٦٨ – الإنطاكي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٦.

٢- ابن أبي حجلة: المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

٣- ابن صصري: الدرة المضيئة، ص ١٦٤.

وقد عنفوني في هواه بقولهم ... ستطلع منه الذقن فاصبر على الحزن

فقلت لهم كفوا فإني واقع ... وحقكم بالوجد فيه إلى الذقن

وقال بعض المشايخ وقد عشق شيخاً:

كلفت به شيخاً كأن مشيبه ... على وجنتيه ياسمين على ورد

أخو العقل يدري ما يراد من الفتى ... أمنت عليه من رقيب ومن ضد

وقالوا الورى قسمان في شرعة الهوى ... لسود اللحى ناس وناس إلى المرد

وقالوا لهم لو كنت أصبو لا مرد ... صبوت إلى هيفاء مياسة القد

وسد اللحى أبصرت فيهم مشاركاً ... فأثرت أن أبقى بأبيضهم وحدي[1]

ولكثرة الحكايات والصور التي أوردها كل من الإنطاكي وابن حجلة نستطيع القول إن هناك أنواعاً من عشق الغلمان ما يمكن أن نسميه (بالعشق العذري) فلقد اكتفى بعضهم بصحبة الغلمان دون ممارسة الشذوذ الجنسي، وقد لاحظنا أن عدداً من الفقهاء قاموا بإصدار فتاوى تمنع من معاشرة الأحداث والنظر إلى الوجوه الملاح.

و - انتشار الخمر:

اتخذ الإسلام موقفاً واضحاً من مسألة تحريم الخمر، وارتبط التحريم بمواقف أخلاقية ودينية رتبت على مستهلكيها نتائج سلبية، ورغم ذلك فقد عرفت ظاهرة تناول الخمر قبل فترة البحث، لكن انتشارها قوي خلال فترة دخول المغول للمنقطة، وكما تذكر المصادر فإن أهل الذمة ساهموا بشكل كبير في نشر شرب الخمر وتداوله بين الناس، إذ انحصر إنتاج الخمر بأهل الذمة فقط.

أما العوامل التي ساعدت في انتشار الخمر خلال فترة البحث فهي التسامح الديني الذي أبداه المغول تجاه أهل الذمة في بلاد الشام، إضافة إلى غض النظر عن بعض الأعمال التي قاموا بها تجاه المسلمين، ففي سنة ٦٥٨ هـ /١٢٥٩م عمد أهل الذمة إضافة إلى بعض المتساهلين في أمور الدين إلى بيع الخمر عند دخول المغول للمنقطة، كما قام أهل الذمة برش الخمر على أبواب المساجد، إذ كان معهم قماقم مملوءة بالخمر رشوها على مسجد درب الحجر الصغير والكبير، وعند رباط الشيخ أبي البيان[2]، كما رشوا الخمر على وجوه الناس وثيابهم[1].

١- ابن أبي حجلة: المصدر نفسه، ص ٢٤٣-٢٤٤.

٢- رباط أبي البيان: داخل باب شرقي تجاه درب الخمر، وقد بناه أبو البيان بن محمد بن محمد بن محفوظ القرشي ويعرف بابن الحوراني (ت ٥٥١ هـ/١١٥٦م). انظر النعيمي: الدارس ج ٢، ص ١٩٢.

وكان ضعف الرقابة الحكومية الناجمة عن انشغال المماليك بالمواجهة العسكرية مع المغول من جهة، وبمشاكلها الداخلية من جهة أخرى من العوامل التي ساعدت على انتشار الخمر. فالسلطة المملوكية انشغلت بتهدئة حركات الشغب والتمرد ضدها سواء الاستقلالية عن السلطة، أو الحركات التي طمع أفرادها في عرش السلطنة، لذلك كان هم السلطات مقاومة العدو المغولي، وتأمين حاجات المجتمع الاقتصادية، وهذا ما سمح لظواهر الفساد بالانتشار لكن السلطات المملوكية تجاوزت أحكام الإسلام على متعاطي وبائعي الخمر حيث وصلت على حد القتل، مع العلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده والفقهاء لم يفتوا بقتل السكران وإنما إقامة الحد عليه، فقد روى بعضهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ضرب في الخمر بالجريد والنعال وجلد أبو بكر أربعين جلده، أما عمر فقد استشار الناس، فأشاروا عليه بأخف الحدود وهي ثمانين فأمر بها[2].

وتم في فترة البحث التعاون والتنسيق بين الهيئات العلمية والدينية والسياسية لمحاربة الخمور وبيعها وخاصة بالنسبة لأهل الذمة، وأفتى الفقهاء بأن خمور أهل الذمة لا تراق عليهم إلا أن يظهروا شربها أو بيعها، وهذا ما حصل في هذه الفترة لذلك لم تألُ طائفة الشيوخ جهداً في منعها، فقد قام الشيخ خضر[3] شيخ الظاهر بيبرس مع علماء آخرين بتفتيش بيوت أهل الذمة سنة ٦٦٨ هـ /١٢٦٩م لإلزامهم بأن يكتبوا على أنفسهم كتاباً بعدم تعاطي الخمور وعدم اقتنائها[4].

وساعد الشيخ خضر في محاربة انتشار حانات الخمر ومتعاطيها قضاة حماة ناصر الدين بن البارزي الشافعي، وشهاب الدين يعقوب المالكي، وتقي الدين بن شيخ السلامية الحنبلي، ونتيجة لتصرفهم هذا عزلوا عن مناصبهم لأنهم أزالوا الخمارات التي أحدثها النائب سودون العثماني بدون إذن من السلطات. والحانات أو الخمارات كانت المكان الأول لتعاطي الخمر،

١- ابن الجزري: المختار، ص ٢٥٧- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢١٩- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٣-٣٤٣- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٨٠-٨١ – الغامدي: جهاد المماليك، ص ١٠٢ – سعد (فهمي عبد الرزاق): العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بيروت الأهلية للنشر، ١٩٨٣، ص ٢٧٣.

٢- ابن أبي العينين: (أبي عبد الله أحمد ابن إبراهيم): إعلام الأنام بأحكام الخمر في الإسلام، طنطا، دار التراص، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ /١٩٨٩م، ص ٦٢.

٣- الشيخ خضر: هو خضر بن أبي بكر محمد بن موسى، أصله من قرية المحمدية أعمال جزيرة ابن عمر، وهو شيخ الظاهر بيبرس وكان الظاهر له عقيدة فيه ذلك أنه أنباه بالسلطنة، وبعد تولهي الحكم كان يطلعه على غوامض أسراره، ثم تغير الظاهر بيبرس عليه وحبسه سنة ٦٧١هـ الشيخ خضر سنة ٦٧٦هـ. ينظر ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٢٧٦-٢٧٧.

٤- الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٢٨٨- دول الإسلام، ج ٢، ص ١٧١- اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٦٧- اللاقشهسي (أحمد بن عماد بن محمد بن يوسف): إكرام من يعين بتحريم الخمر والحشيش، طنطا، دار التراث، ط١، ١٤١١ هـ /١٩٩١ ص ٢٩.

وضمت القيان، والمغنيات إضافة إلى راقصات وغلمان كانوا يضفون على مجالس الشرب نوعاً من التهتك واللهو[1].

ومن الواضح أن السلطة وقفت إلى جانب الهيئات الدينية في محاربة المنكرات، وتعهد أفرادها بإزالة هذه المنكرات لذلك أقدم السلاطين والنواب والأمراء على محاربتها، وأول من بدأ منهم الظاهر بيبرس البند قداري فأصدر أمراً سنة ٦٦٤ هـ /١٢٦٥م بكسر جرار الخمور وأراقتها في مصر والشام وقد قيل في ذلك أشعار منها:

لـــيس لإبلـــيس عنـــدنا أرب ... فغـــير هـــذه الـــبلاد مـــأواه

حرمتـــه الخمـــر والحـــشيش معـــاً ... أعدمتـــــه مـــــاءه ومرعـــــاه

كما أصدر الظاهر بيبرس في وقت آخر أمراً بمنع بيع الحشيش والخمر معاً عقوبة البائع والشارب القتل، وأدل دلالة على ذلك أن ابن الكازروني ألقي القبض عليه وهو سكران وعنده جرة خمر فصلب[2].

وفي سنة ٦٦٩ هـ /١٢٧٠م أقدم الظاهر بيبرس على إراقة الخمور في سائر البلاد وتعذيب من يقم بعصرها بعد ذلك، مما يدل على أن إنتاج الخمور كان يتم في المنطقة وعلى أيدي أبنائها حيث تتوفر جميع المواد المستعملة في صنع الخمور[3].

وتابع المنصور قلاوون ما بدأ به زميله بيبرس في إزالة المسكرات وغيرها فأمر سنة ٦٧٨ هـ /١٢٧٩م بإبطال الخمور وألا تضمن ولا يتظاهر بها[4].

وكان للتدخل المغولي في المنطقة أثر على جميع ظواهر الفساد، ففي سنة ٦٨٠ هـ /١٢٨١م وعند دخول المغول للشام سمح ببيع الخمور، والتغاضي والتجاهل في سوء الأخلاق لمن نال خطوة عند أولي الأمر، غير أن العلماء قاوموا البيع، وذلك لتحريم التجارة به، فقد نهى رسول الله صلى الله عن تجارته فقال: «حرمت التجارة في الخمر»[5]. أما المغول فقد شجعوا ذلك وربما ارتبط البائعون مع الغزاة في مصالح مادية أو معنوية، وكان هدف الغزاة أيضاً من بيعها إضعاف الروح المعنوية والعسكرية عند أهل تلك البلاد، فالخمور تذهب العقل وتؤدي إلى

١- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٢١٦- سعد: المرجع نفسه، ص ٢٧٣.

٢- المنصوري: المصدر نفسه، ص ٥٦- ابن شاكر: فوات، ج ١، ص ١٧٠ - ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٦.

٣- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٣٩٠- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ١٨٠- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٦٠.

٤- ابن عبد الظاهر: تشريف الأنام، ص ٥٨ قسم ابن الفرات.

٥- صحيح البخاري: (٤١٧/٤) رقم /٢٢٢٦/.

الخمول والكسل، وهذه غاية الغزاة في تحقيق مآربهم، فقام السلطان قلاوون بإصدار أمر بإراقة الخمور وإبطالها، وقد ساعده على تطبيق هذا القرار معاونة العلماء له[1].

وبسبب تشديد السلطة على محاربة الفساد وشرب الخمور، فقد قبض سنة ٦٧٨ هـ /١٢٨٨م على ذمي كان يشغل منصب الكتابة بدمشق، وامرأة مسلمة يشربون الخمر، فأمر نائب السلطنة بدمشق بحرق الذمي، أما المرأة فقطع بعض أنفها جزاءً لما ارتكب[2].

وكانت منطقة الزبداني من المناطق التي يعصر فيها الخمر، لذلك شدد على أهلها سنة ٦٩٠ هـ /١٢٩١م ألا يعصروا خمراً. كما طالب بعض سكان المناطق السلطات بإزالة الحانات من مناطقهم، فقد طلب أهالي معرة النعمان من السلطان سنة ٦٩١ هـ /١٢٩٢م بإبطال الخمارات في بلادهم فأجابهم إلى طلبهم وأبطلت من وقتها[3].

وشاع انتشار الخمر في بعض الأحيان لدى الأوساط السياسية وخاصة أعيان السلطة وعندما كان الأمير لاجين حاكماً بدمشق سنة ٦٩٧ هـ /١٢٩٧م أخذ يفرط في الشرب ومعاشرة النساء حتى اضطر الشجاعي نائب السلطنة بدمشق أن يخبر الملك المنصور قلاوون بالأمر، فبعث يهدده إذا لم يترك ذلك[4].

وبدخول المغول للمنطقة سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م ارتكبوا الفواحش كشرب الخمر والزنا وطرح القاذورات والنجاسات في الجامع الأموي، كما قام قبجق نائب غازان بدمشق بإعادة عمل الخمارات وتشجيعها فأمر بإدارة الخمارة والحانة بدار ابن جرادة خارج باب توما، حيث ضمنت كل يوم بألف درهم[5].

وبعد رحيل غازان عن المنطقة ألغى علم الدين أرجواش ما استجده غازان من الحانات، فأغلقها، وأمر بكسر المواعين التي تستخدم فيها الخمور، ونفذ المهمة الشيخ تقي الدين بن تيمية وأصحابه، حيث داروا على الخمارات والحانات وكسروا أواني الخمور وشقوا الظروف، وشتموا أهل الحانات، ورافقه بعض من عامة الشعب وهو يدور على الحانات وكان يقرأ عليهم سورة القتال وآيات الجهاد وأحاديث الغزو والرباط والحرس ويحثهم على ذلك،

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٩٤ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٨٨- ابن أبي العينين: إعلام الأنام، ص ٧٩.

٢- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ١٥٨- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣١٢- العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧١.

٣- ابن الجزري: المختار، ص ٣٤٣- ابن الوردي: المختصر، ج ٢، ص ٣٣٩.

٤- المقريزي:/ السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٦١ – العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٣٢.

٥- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٦٩-٤٠٠ ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر، ص ٢٨-٣٠ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩٣-٨٩٦- المقفى الكبير، ج ٧، ص ١٧٢- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٦- دهمان: ولاة، ص ١٠٩.

وقد سر العامة كثيراً لهذا الأمر[1].

وعندما انتشر شرب الخمر بين الأوساط الدينية والقضائية عمدت السلطة إلى عقوبة القتل أحياناً، والعزل أحياناً أخرى، فقد قتل الفتح أحمد بن الثقفي من أهل حماة بسبب شربه للخمر، وقتل معه الأديب الشاعر أحمد بن محمود بن إسماعيل، وناصر بن الهيتي، أما القاضي صدر الدين بن الوكيل فقد تعرض للعزل بسبب شربه الخمر وثار الناس بسبب ذلك وادعوا بأن الصلاة لا تجوز خلفه، وعين بدله صدر الدين بن المرحل، لكن الخلف لم يكن بأحسن من السلف فقبض على الأخير سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠م بدمشق مع جماعة يعاقرونه الخمر وعزل من منصبه[2].

وقام السلطان محمد بن قلاوون بإبطال الخمور لسنوات متلاحقة ومتتابعة سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩-١٣١٤ هـ ٧١٧-١٣١٧م-٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، ٧٤٥هـ/١٣٤٤م[3].

وكانت ظاهرة انتشار الخمور مرتبطة بقوة السلطة السياسية في المنطقة، فقد كانت تزداد انتشاراً عند ضعف الأمير أو النائب في المنطقة، فقد ازداد الفسق والمجاهرة بالخمر في مدينة دمشق عند ضعف الأمير قطلز دمر الحموي وتغلب مماليكه عليه[4].

وقد تابع النواب سياسة محاربة ظاهرة الخمور بيعه وتعاطيه، فقام نائب حلب الأمير بيبغا ابن عبد الله القاسمي بالتشديد على من يشرب الخمر، وحكم بغير أحكام الله، ذلك أن أحد المباشرين بالديوان السلطاني بحلب شرب الخمر سنة ٧٥٢هـ /١٣٥١م، ثم ركب وسار إلى دار الإمارة بغير اختياره فأمر بيبغا روس بتسميره على جمل فسمر وطيف به في المدينة ساعة من النهار ثم أطلق[5].

وتابع أرغون الكاملي نائب دمشق هذه السياسة فأصدر أمراً سنة ٧٥٢ هـ /١٣٥١م بأن من وجد جندياً سكراناً فلينزله عن فرسه، وليأخذ ثيابه، ومن أحضره من الجند إلى دار السعادة

١- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤٠١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١١- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٠٠- المقفى الكبير، ج ١، ص ٤٥٩- زيادة: دمشق، ص ٢٠١- دهمان: ولاة، ص ١١١.

٢- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج٢، ص٣٩٨- المقريزي: المصدر نفسه، ج٢، ق١، ص٨٨ – العسقلاني: الدرر، ج٤، ص١١٦-١١٧- العيني: المصدر نفسه، ج٤، ص١٧٧-٣١٩- ابن تغري بردي: المنهل، ج٢، ص٩٥-٩٦- الشوكاني: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٣٥.

٣- الذهبي: ذيول العبر، ص ٤٥- دول، ج ٢، ص ٢٢٤- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٩-٤٨٦- اليافعي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٥- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٥٠-٧٠-٨٢- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢١١.

٤- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٦٤٩.

٥- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٠، ص ٢٩٣ – المنهل، ج ٣، ص ٤٨٦.

فله خبزه، ففرح الناس بذلك واحتجوا على الخمارين والعصارين ورخصت الأعناب[1].

وشدد نائب السلطنة في دمشق على أهل الذمة سنة ٧٦٧ هـ /١٣٦٥م بعدم عصر الخمور، لذلك أمر بتفتيش بساتينهم فوجد فيها من الخمر المعتصر الخوابي والأحباب فأريقت عن آخرها، بحيث جرت في الأزقة والطرقات، وفاض نهر توراً من ذلك وهذا فيه بعض المبالغة، وأمر بمصادرة أهل الذمة الذين وجد عندهم ذلك وهم تحت الجباية[2].

ولما ولي طرنطاي الحجسوبية في دمشق (نائب دمشق سنة ٧٩٢هـ) شدد على العوام في قضية شرب الخمر وعاقب نتيجة لذلك كثيراً من الناس، وظل يحارب الفساد حتى طلب إلى الديار المصرية[3].

وعندما ورد إلى مسامع نائب دمشق قدوم قافلة مليئة بالخمر سنة ٨٠٠ هـ /١٣٩٧م وهي نحو مائتي جمل أرسل رجاله واعترضوا القافلة وتحاربوا عند المزة، وأخذوا القافلة وكانت للأمير يلبغا الأشقتمري، فأخبر نائب دمشق السلطان بهذه الأنباء[4].

انقطعت أرزاق الخمارين، وقل بيعهم نتيجة للأحكام الشديدة التي فرضها رجال السلطة على متعاطي الخمور، وعندما نقلت السلطات المملوكية الأمير سيف الدين منجك من نيابة دمشق لنيابة صفد فرح الخمارون ومتعاطو الخمر، لأنه حارب الخمارين كثيراً[5].

ونتيجة انتشار التعاليم الدينية بشكل كبير بين الناس، بتوجيه من الفقهاء ورجال الدين، تولد لديهم قناعة تامة بتحريم شرب الخمر، وجلبه للمصائب، فقد روى بستاني أن مياه عين الكرش بمدينة دمشق جفت بعد أن كانت تدير حجر الطاحون وسبب جفافها شرب الخمر من قبل بعض الأهالي، وفعلهم لكل قبيح، فمنع الناس من الجلوس عندها وعزلوها، فجرت ولكن بشكل ضعيف[6].

لقد ساهم الغزو المغولي للمنطقة في انتشار شرب الخمر وبيعه، كما أثر على أحكام أمراء المماليك التي تناولت شرب الخمر، فوصلت بعض هذه الأحكام إلى حد القتل فتخطت أحكام الإسلام بذلك.

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٤٠- دهمان: ولاة، ص ٢٠٤.

٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣١٧.

٣- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٦، ص ٣٨٣- دهمان: ولاة، ص ٢٤٨-٢٥٠.

٤- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٦٥١.

٥- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٦٣- دهمان: المرجع نفسه، ص ٢١٤.

٦- ابن صصري: المصدر نفسه، ص ٢٠١.

ن- انتشار الحشيشة:

ارتبط تناول الحشيشة في بلاد الشام تاريخياً بالصوفية، وإلى الصوفية يعود الفضل في الكشف عنها وانتشارها، فاستعملت كمادة منشطة تساعد على السهر، وتم اكتشاف الحشيشة على يد الشيخ حيدر المقيم في خراسان الذي تناول نبات الحشيش في البرية ولم يعرف ما هو اسمه، فشعر بنشاط في جسمه وذهنه، فأصبح يتناولها باستمرار ثم أهداها إلى أصحابه وأوصاهم بكتمان سرها عن العوام وقال:

«أن الله تعالى قد خصكم بسر هذا الورق ليذهب أكله همومكم الكثيفة، ويجلو بفعله أفكاركم الشريفة، فراقبوه فيما أودعكم وراعوه فيما استرعاكم».

كما أمرهم الشيخ حيدر بزرع الحشيشة حول ضريحه بعد أن يموت. لكن الأدباء هزئوا بتلك الحشيشة وسموها مدامة حيدر وفي ذلك يقول بعضهم:

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر	معنبرة خضراء مثل الزبرجد
يعاطيكها ظبي من الترك أغيد	يميس على غصن من البان أملد
فتحسبها في كفه إذ يديرها	كرقم عذار فوق خد مورد
يرنحها أدنى نسيم تنسمت	فتهفو إلى برد النسيم المردد
وفيها معان ليس في الخمر مثلها	فلا تستمع فيها مقال مفند[1]

وانتشرت آفة تناول الحشيش على يد الصوفية في كافة المجتمعات، لكنها اتخذت عند الصوفيين للسهر والعبادة، بينما اتخذت الحشيشة في فترة البحث للسكر كالخمر تماماً.

ولقد نهى الفقهاء ورجال الدين عن تناولها بالقياس مع الخمر، لأن كل مسكر حرام، فقد قال ابن البيطار: الحشيش مسكرة جداً، وقال القرافي: يحرم أكل الحشيش بالإجماع، بينما اعتبر ابن تيمية من استحلها كافراً[2].

لكن بعض الفقهاء حللوا بيع الحشيشة، وربما قصدوا من ذلك الجانب الطبي حيث كانت تستخدم التداوي، والدلالة على صحة القول قولهم لمن يأكلها حرام كبيع العنب أو يعصر الخمر[3]

وقد عدد أحمد بن يوسف الإقفهسي مضار الحشيشة الدينية والدنيوية حيث قال:

١- مبارك (زكي) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، مصر، مطابع دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ /١٩٥٤م، ج ١، ص ٣٢٣-٣٢٤.

٢- الإقفهسي: المصدر نفسه، ص ٦٠-٦١.

٣- الإقفهسي: المصدر نفسه، ص ٦٧.

«أنها تورث الفكرة وتجفف الرطوبات، وتعرض البدن لحدوث الأمراض، وتورث النسيان، وتصدع الرأس وتقطع المنى وتجففه، وتورث موت الفجاءة، واختلال العقل، والدق، والسل، وتورث فساد الفكر ونسيان الذكر، وإفشاء السر، وإنشاء الشر، وإذهاب الحياء، وكثرة الماء وعدم المروءة، وكشف العورة، وعدم الغيرة، وإتلاف الكيس، ومجالسة إبليس، وترك الصلوات، والوقوع في المحرمات، وتفسد العقل، وتقطع النسل وتورث الجذام، وتورث البرص،... وتفتر الأعضاء، وتضيق النفس، وتقوى الهوس، وتنقص القوى.. وتورث الكسل والفشل، وتجعل الأسد كالجعل، وتعيد العزيز ذليلاً، والصحيح عليلاً، إن أكل لا يشبع، فإن أعطي لا يقنع، وإن كلم لا يسمع، تجعل الفصيح أبكم، والصحيح ابلم، وتذهب الفطنة، وتحدث البطنة، وتورث اللعنة، والبعد عن الجنة»[1].

وساهم المغول بشكل غير مباشر في انتشار الحشيشة في بلاد الشام وشجعوا تناولها، نتيجة للظروف السياسية السائدة بعد احتلال المغول لبغداد، التجأ السلطان أحمد بن أويس إلى دمشق سنة ٧٩٦ هـ /١٣٩٣م ونزل في القصر الأبلق والميدان ومعه خمسمائة نفس عاثوا فساداً في دمشق وشربوا الحشيشة أمام أهلها، فمقتهم أهل دمشق نتيجة تصرفهم هذا[2].

ومن غير المستبعد أن يكون بقاؤهم في مجتمع كبير كمدينة دمشق قد جر بعض ضعاف النفوس إلى تناولها، الأمر الذي سيؤدي بالطبع إلى كثرة انتشارها بين جماهير العامة والجهال بشكل خاص، مما سيؤدي إلى إضعاف الروح الدينية والقومية في مرحلة وصفت بأنها أصعب المراحل التي مرت على المنطقة، فالسلطان المملوكي في خصام مع نواب دمشق ومع منطاش التركماني، وتيمورلنك خرج من بلاده وبدأ باجتياح المدن أمامه وتشريد أهلها، وقتلهم وظل جاداً في سيره حتى وصل المنطقة سنة ٨٠٣ هـ /١٤٠٠م.

وإذا كان للمغول يد في وصول الحشيشة إلى بلاد الشام، فمن البديهي أن يشجعوها عند احتلالهم للمنطقة حتى يضعف المجتمع ويصيب أفراده الخمول، مما يسهل سيطرتهم عليه.

وعلى الرغم من تحريم الحشيشة فقد سادت بين فئات الشعب العامة منهم والخاصة وحتى بين المشايخ، فبدلاً من قيامهم بالدور الإيجابي للحد منها كان بعضهم يتناولها، منهم أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن راجح، نجم الدين عماد الدين المقدسي سبط، الشيخ شمس الدين بن أبي عمر (ت ٧١٠هـ) وقد أدت الحشيشة إلى وفاته، وقد مات كثير ممن تناولها فجأة[3].

وفي سنة ٧٠٤ هـ /١٣٠٤م أحضر ابن تيمية الشيخ إبراهيم القطان، وأمره بترك الصياح

١- الإقفهسي: المصدر نفسه، ص ٦٥.

٢- ابن صصري: الدرة المضيئة، ص ١٤٦.

٣- العسقلاني: الدرر، ج ١، ص ٨١.

والفحش وأكل الحشيشة وترك لباس الدلق، وأكل جميع ما يغير العقل ويذهبه، وأفتى ابن تيمية بكفر من استحلها ويدل هذا دلالة واضحة على اشتراك الهيئات الدينية بمحاربة الحشيشة[1].

والظاهر أن تناول الحشيشة لم يقتصر على الرجال فقط بل تناولتها النساء أيضاً، فالشجاعي نائب دمشق هدد كل من أكلها، وعندما سمعت النساء بهذا التهديد تراجعن عن أكلها[2].

ونتيجة لخطورة تناولها فقد سارعت السلطة ممثلة بالنواب والسلاطين وحتى الهيئات الدينية في بلاد الشام للتصدي لمشكلة بيع الحشيشة وأكلها، لأنها تذهب العقل، وتلغي دور الفرد السياسي عامة والديني خاصة في المجتمع، وفي وقت كانت فيه بلاد الشام أحوج ما تكون لنشاطات هؤلاء الأفراد السياسية والعسكرية في صد الغزاة ومنع تقدمهم باتجاه المنطقة. لقد أمر الظاهر بيبرس بإبطال ضمان الحشيشة وإحراقها سنة ٦٦٤ هـ /١٢٦٥م لأسباب كثيرة منها أنها مادة مسكرة، وكل مسكر حرام ومنها أنها تضر وتورث الفتور والخدر في الأطراف إضافة إلى أن النبي صلى الله نهى عن كل مسكر[3].

كما شارك المتصوفة في حملات مكافحة الحشيشة، فقد قام مجموعة من الفقراء المغاربة سنة ٧٥٧ هـ /١٣٥٦م بمهاجمة أماكن لبيع الخمر والحشيش بدمشق، فكسروا أواني الخمر وأتلفوا الحشيش ثم انتقلوا إلى حكر السماق وغيرها فثار عليهم البازدائية والكلابرية وغيرهم من الرعاع فتناوشوا، وقد ارتأى أن يناصر هؤلاء المغاربة على الحشاشين والخمارين[4].

٣- الأثر على الناحية الدينية:

١- على المسلمين:

انقسم جيش المغول من حيث تركيبته الدينية إلى نساطرة وشامانيين وبوذيين، واتبع المغول سياسة دينية في كافة المدن التي احتلوها تقوم على تعيين حكام يخالفون السكان الأصليين من حيث العنصر والمذهب، ففي بلاد الشام عين المغول حكاماً معظمهم من الشيعة الفارسيين، كما عزف المغول ببراعة على أوتار الطائفية في بلاد الشام، فقد قربوا منهم ظاهرياً الأقليات الموجودة فيها، فتآخوا مع النساطرة الموجودين في حلب ودمشق وملطية

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣٣- الإقفهسي: المصدر نفسه، ص ٦١- المقريزي: المقفى، ج ١، ص ٤٥٩.

٢- الذهبي: دول، ج ٢، ص ١٩٢.

٣- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٢٦٦- النويري: المصدر نفسه، ص ١٣٠- الإقفهسي: المصدر نفسه، ص ٦٦ – ابن أبي العينين: إعلام الأنام، ص ٦٠.

٤- ابن كثير: المصدر نفسه ج ١٤، ص ٢٥٧- دهمان: المرجع نفسه، ص ٢١٠.

وغيرها، وأحيوا الفتن الطائفية لمحاولة ضرب التماسك الداخلي في بلاد الشام[1].

عند دخول المغول للمنطقة أولوا أهمية خاصة لأهل الذمة، فعطفوا على النصارى وولوهم مناصب هامة استغلها النصارى لصالحهم وقام بعضهم بالانتقام من المسلمين في كافة مدن الشام، وكان لدخول الغزاة أثر كبير على المؤسسات الدينية الإسلامية، فقد أحرقوا الجوامع، وانتهكوا حرمتها، وعطلوا الصلوات فيها، وعطلوا مواسم الحج لسنوات، ونهبوا الجوامع والأديرة، ولكن نجد من زاوية أخرى أن بعض قادة جيشهم كهولاكو أمر باحترام المؤسسات الدينية التي تنتمي لجميع الطوائف، فلم يتعرض جيشه للخانقاه، التي فيها زين الدين الطوسي وكنيسة اليهود، بينما أحرق هيثوم ملك الأرمن الجامع الكبير[2].

ونتيجة للهجمات التي شنها المغول على دمشق بقيادة هولاكو فقد تعطلت فيها الصلوات، فقام فيما بعد والي دمشق إياز الحراني بالتشديد على أهل الأسواق وأمرهم بالصلاة، وعاقب من تخلف عنها، وقد ساعده على ذلك شخص حنبلي يسمى ابن الصيرفي[3].

ولم تكن سياسة غازان الدينية تجاه الإدارات والمؤسسات الإسلامية بأحسن من سابقيه، فعند دخول جيشه دمشق ومحاصرة قلعتها اتخذ جنوده الجامع حانة يزنون بها ويشربون الخمر، وانقطعت الصلاة في الجوامع، وكان الجامع الأموي يغلق بين العشاءين ومن تأخر فيه شلح، ولم يكن يصلي فيه إلا نفر قليل صباحاً ومساءً كما نهبوا الأماكن المحيطة بالجامع فأغلقت أبواب الجامع، وترك منها باب صغير، كما انقطع الناس عن الصلاة حتى أنه لم يكن يصلي خلف الأمام إلا رجل أو اثنان خوفاً على أنفسهم، كما نهب دير الحنابلة ومسجد الأسدية ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرفية، وأحرق جامع التوبة بالعقيبة، وهاجم المغول رباط الحنابلة وأسروا كثيراً من البنات[4].

استخدمت الجوامع للدعاء لغازان والخطبة باسمه، وأصبحت مصلى للمغول، وفوضت ولاية

١- العريني: المغول، ص ٢٤٨.

٢- أبو شامة: تراجم، ص ٢٠٨- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠١- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٣- الذهبي: دول، ج ٢، ص ١٦٣- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٧-٣٨- العريني: المغول، ص ٢٤٤- دهمان: ولاة، ص ٤٩- عاشور: العلاقات، ص ٥٤-١٥١-١٥٢.

٣- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٣، ص ١٢٣.

٤- الصفدي: تحفة، ج ٢، ص ٢٠٤- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٨-٩ ابن خلدون: العبر ج ٥، ص ٤، ص ٨٩٠- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩٣- المقفى الكبير، ج ٧، ص ١٧٢- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٧-٩٨- عاشور: العلاقات، ص ١٥١- دهمان: ولاة، ص ١٠٢.

القضاء إلى قبجق، فقام هؤلاء بنثر الدراهم والدنانير على الناس ففرحوا بذلك لما يعلمونه من علم قبجق وحسن سيرته[1]. وتابعت المدن حياتها اليومية بعد خروج غازان من المنطقة فتكون الخطبة قد انقطعت في الجوامع باسم السلطان المملوكي حوالي مائة يوم، وبعد خروج غازان عادت إلى سابق عهدها[2]. وكانت الكارثة على مدن الشام أعم وأكبر عند قدوم تيمورلنك على المنطقة، فلم يعد الأمان لمدينة من المدن بل خضعت المدينة بكامل مؤسساتها الدينية والإدارية والاقتصادية لهمجية جيشه، فقد تعطلت الصلوات في المدن، وتوقفت سبل الحياة الاقتصادية، كما شهدت المدن أضراراً مادية ومعنوية جسيمة، وكانت مدينة حلب أولى المدن المتضررة، فقد كثر فيها القتل والحرق والسبي للمسلمين، إضافة إلى تضرر المعاهد الدينية[3].

أما في دمشق فكانت الكارثة أكبر، إذ تعطلت الصلوات والأذان، ومنع الناس من إقامة صلاة الجمعة، ولم يصلّ الناس في فترة بقاء جيوش الغزاة إلا مرتين الأولى يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الآخرة، حيث دعا فيها الخطيب للسلطان محمود ولولي عهده ابن تيمور، واستباح الغزاة الجامع الأموي حيث نهبت منه البسط والحصر، وستر بها شرفات الجامع على البوائك، وصلى الناس الجمعة الثانية في شمالي الجامع وكان عددهم قليلاً، وهتك المغول حرمة الجامع فلعبوا بالكعاب، وضربوا بالطنابر ثم منعوا الناس من إقامة صلاة الجمعة في الجامع الأموي فأقيمت بالخانقاه السميساطية، ولم تقم صلاة الجمعة بالجامع الأموي إلا بعد سنة تقريباً، فقد كان خراباً[4].

كما تدخل تيمورلنك في تعيين القضاة وفي تفضيل بعض المذاهب على الآخر فقد جعل أعلى رتبة من القضاة للقاضي الحنفي، كذلك عين الحنبلي مكانه أما المالكي أو الشافعي فلم يهتم بتعيين قضاتهم[5].

وتعطلت قافلة الحج بعد الغزو المدمر للمنطقة، فبعد قدوم تيمورلنك توقفت قافلة الحج ما يقارب الثلاث سنوات، ولم تقم حتى سنة ٨٠٦ هـ /١٤٠٣م حيث قام المؤيد شيخ نائب الشام

١- الصفدي: تحفة، ج ٢، ص ٢٠٢- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩١- دهمان: ولاة، ص ٩٦-٩٧.

٢- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤٠١ العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٧.

٣- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٢٥- الصيرفي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٥-٧٦-٧٧.

٤- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٤٨-١٠٨٢- العسقلاني، ج ٤، ص ٢٠٧-٢٠٨- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٤٢-٢٩٧- الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٨٨- التعيمي: الدارس، ج ٢، ص ١٦٠- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٣-٦٤٦- العلبي: تيمورلنك، ص ١٨٣-١٩١.

٥- الصيرفي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٩.

بتجهيز المحمل وجعل أمير الركب فارس الدوادار التتمي وجعل ثوب المحمل حريراً أصفر مذهباً قيمته نحو خمسة وثلاثين ألف درهم فضة[1].

واتخذ موسم الحج مظهراً اجتماعياً في هذا العصر لأنه محط اهتمام الناس كافة العامة أو الخاصة، وفي هذا الموسم كانت الحركة والنشاط يسريان في أوصال المجتمع، وتزدهر الأسواق المخصصة لبيع لوازم الحجاج، وبالتالي فإن انقطاع قافلة الحج أثر سلباً على هذه الأسواق، فانخفضت بالتالي عائدات التجار لأن الحجاج كانوا يتبضعون الطعام واللباس وغير ذلك من لوازم الحج من المدن التي يمرون بها، فقد كانوا يشترون من دمشق مثلاً البقسماط بكميات كبيرة، وبالتالي شكل انقطاع هذه العائدات خسارة كبيرة لتجار المدن وللدولة أيضاً[2].

وأثرت غزوات المغول سلباً على المعاهد الدينية، إذا أوقعتها في الفوضى، فقد استوجبت أعمال الترميم للمنشآت الدينية خفض رواتب الأساتذة لدفع التكاليف لهذه الترميمات، فخفضت رواتب الأساتذة حتى وصلت أخيراً إلى الثلث عام ٨٢٠ هـ /١٤١٧م وذلك لتقليل النفقات الكبيرة، وبقي العجز حوالي أربعين ألف درهم ولتأمينه تم استقطاع مدفوعات شهرية من رواتب القضاة والمدراء وخطباء المساجد وراتب واحد من المؤذنين والأساتذة في العام اللاحق كما أعيد تنظيم المدفوعات، وافترض إعادة دقيقة للتنظيم بسبب نقص الأموال التي ازدادت نتيجة لإهمال استمر أكثر من قرن[3].

٢- على أهل الذمة:

أولى الإسلام أهمية خاصة لأهل الذمة فأباح حرية الاعتقاد والعبادة لأبناء الديانات الأخرى إذا قبلوا أن يعيشوا في ديار الإسلام، وأهتم الخلفاء بتنظيم أمور أهل الذمة تنظيماً يكفل لهم حماية جيدة وعيشاً مطمئناً، وقد أصدر الخلفاء عدداً من العهود التي تنظم علاقة أهل الذمة بالدولة والمجتمع الإسلاميين.

تعددت فئات أهل الذمة التي انتشرت في مناطق بلاد الشام فكان منهم النصارى واليهود والصابئة والمجوس، وكان النصارى فئتين: الملكانية وتدين بالولاء للبابا، وعرفوا بالكاثوليك، وكان لهم بطريرك يرجعون إليه في التحليل والتحريم، وفي الحكم بينهم، وفي أمر الكنائس والبيع، وهو يترأس هذه الجماعة ويخضع له الجميع.

١- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١١٢- العسقلاني: أنباء، ج ٥، ص ١٥٢- ابن طولون: أعلام الورى، ص ٥٨- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٣.

٢- العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص ٢٦١- قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٠٠.

٣- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ١٢٩-١٣٠.

أما الفئة الثانية فكانت اليعقوبية وهم الشرقيون وقد ساد هذا المذهب أيضاً في الحبشة ومصر[1].

أما اليهود فكانوا في بلاد الشام ينقسمون إلى فئتين: أولاهما اليهود القراؤون والربانيون، وهؤلاء الذين اتفق الإسلام على يهوديتهم، والثانية السامريون أتباع السامري الذي أضل اليهود وجعلهم يعبدون العجل وقد أورد ابن فضل الله العمري الوصية التي أوكلت إلى رئيس السامرة حيث قال: «... فليلتزم الحدود وليقم من شرط الذمة بما قيم به طول المدد وليتمسك بالموسوية من غير تبديل ولا تحريف في كلمة ولا تأويل وليحص عمله فإنه عليه مسطور وليقف عند حده ولا يتعد طوره في الطور وليحكم في طائفته»[2].

وكان رئيس السامرة مقيماً بمدينة نابلس مدينتهم المعظمة، وله نائب بدمشق، وكانت وظيفة رئيس اليهود توضح في مرسوم التعيين وهي تشبه وظيفة البطرك[3].

ولا بد عند الحديث عن أهل الذمة ودورهم الاجتماعي والسياسي في هذه الفترة من التطرق إلى الأماكن التي قطنوا بها، واللباس الخاص بهم والجزية التي أدوها باستمرار ومتى قطعوا تأدية هذه الجزية؟.

برزت لدى طوائف أهل الذمة نزعة استقلالية في أحياء خاصة من المدن، ففي مدينة دمشق مثلاً اختلفت الروايات حول مناطق سكن اليهود والنصارى، فاحدها تقول إن النصارى كانوا يقيمون في شمال شرق مدينة دمشق، بينما تجمع اليهود في الجنوب الشرقي. أما الرواية الثانية فقد ذكرت أن النصارى أقاموا في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة بينما أقام اليهود في قسم مماثل من المدينة جنوبي الشارع المستقيم الممتد من باب الجابية إلى باب شرقي. وكان درب كليلة في المدينة يعرف بحارة اليهود، ، وهو قبلي درب البياعة، والدرب يعرف قديماً بكليل القاضي. ولم يقتصر سكن اليهود على مدينة دمشق فقط بل أقاموا في القرى ومنها قرية جوبر[4].

وكان شأن أهل الذمة في الدولة الإسلامية شأن الفئات الأخرى إلا أنهم كانوا يدفعون الجزية، وفرض عليهم بعض الشروط لتمييزهم عن المسلمين، إذ أورد السبكي في كتاب

١- العمري: التعريف بالمصطلح، ص ١٤٤-١٤٥- العلبي: دمشق، ص ٨٢.

٢- العمري: المصدر نفسه، ص ١٤٤- العلبي: المرجع نفسه، ص ٨١-٨٢.

٣- القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ق ١٩٤- زيادة: دمشق في عصر المماليك، ص ١٦٦.

٤- ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد في ذكر المساجد، ص ١٠٣- زيادة: المرجع نفسه، ص ١٣١ – سوفاجيه (جان): دمشق الشام لمحة تاريخية حتى عهد الانتداب، تحقيق أكرم حسن العلبي، دمشق، ط ١، ١٩٨٩ ص ٨٠- العلبي: المرجع نفسه، ص ٨١.

الفتاوى ما حرم عليهم وما جاز لهم، فقال إنهم كانوا يمنعون من تعليم أولادهم القرآن لأنهم قد يستخفون بحرمته ويستهزئون به، ولهذا منعوا من شراء المصحف، كما منعوا من مشاركة المسلمين في أي شيء إلا في التجارة لأنهم قد يعاملون بالربا والخمر والخنزير، كذلك منع الإسلام على المسلمين التشبه بلباسهم حتى لا يخرجوا إلى مرتبة التعظيم لقوله صلى الله عليه وسلم: «ولا تتشبهوا باليهود» ولأن عمر صالحهم بشرط تغيير زيهم بحضرة الصحابة. وقد كان لون لباس أهل الذمة في فترة البحث أزرق، بينما كان لباس اليهود أصفر[1].

غير أنهم في بعض الأحيان لم يتقيدوا بارتداء هذا اللباس ربما بسبب انشغال السلطة بإعادة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى ما كانت قبل قدوم الحملات العسكرية المغولية المتكررة، لذلك فقد حددت السلطات لباسهم سنة ٦٨٠ هـ /١٢٨١م ووظائفهم سيما أن بعضهم قام بدور مغاير لمصلحة المجتمع إثر قدوم المغول إلى المنطقة.

ومارس النصارى دوراً سلبياً إثر قدوم الحملات المغولية، فقد ساندوا الغزاة منذ دخولهم المنطقة، وقد حصلوا على أمان من هولاكو فشاروا بدمشق، ورفعوا الصليب، ودقوا النواقيس، ونهبوا المسلمين وقللوا من شان دين الإسلام، ورشوا الخمر على أبواب المساجد حيث دخلوا من باب توما قاصدين درب الحجر، ورشوا الخمر على رباط الشيخ أبي البيان، وفعلوا ذلك على باب مسجد الحجر الصغير، والمسجد الكبير، فاشتكاهم المسلمون إلى نائب قلعة دمشق ايل سنان، لكنه طردهم وأهانهم، ورفع من مكانة قسيس النصارى، لذلك لم يكن مجال أمام المسلمين إلا الانتظار لما ستسفر عنه آثار المعركة بين المسلمين والمغول، ولما انجلت النتائج في عين جالوت وانتصر المسلمون، قاموا بالثأر من النصارى والتشفي منهم لما فعلوه، فقتلوا الكثير منهم في دمشق، وخربوا الكنائس ومنها كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم وهي بالجاني الذي فتحه خالد بن الوليد، وأخذوا جميع ما فيها وشعثوا بقية الكنائس كذلك فرضوا قطيعة على أهل الذمة سواء النصارى أو اليهود بلغت مائة ألف وخمسين ألف درهم فالتزموا بها وجمعوها وحملوها للمظفر قطز[2].

١- السبكي: الفتاوى، ص ٤٠١-٤٠٢.

٢- ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٥٣-٥٤- أبو شامة: تراجم، ص ٢٠٨- اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦٢-٣٦٤- أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٢٠٤- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٦- الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٢٤٢-٢٤٣- دول، ج ٢، ص ١٦٣- اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٤٩- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٢١- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ق ٤، ص ٧٩٤- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٥-٤٣٢- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٢-٢٤٩- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٨٠-٨١ – فهمي: المرجع نفسه، ص ١٤٢-١٤٧.

وأخذت قضية ترميم الكنائس المتهدمة أو بنائها حيزاً هاماً من كتابات الفقهاء وخاصة المؤرخين منهم، وقد ناقشوا متى تهدم، ومتى لا تهدم، ومتى تبنى، ومتى يعاد ترميمها، ومن هؤلاء الفقهاء السبكي: حيث يقول:

«غير أني أقول إن اليد ههنا على الكنائس لا أسلم أنها للنصارى بل للمسلمين، فما ظهر لهم أنها تبقى بقيت، وما شك فيها فهي في أيدينا باقية على الشك لا نقدم على الحكم فيها بأمر من الأمور لا بهدم ولا بإبقاء إلا بمسند خوفاً من الله تعالى لا من أحد أن يقدم في شريعته على حكم بغير علم. وتظهر فائدة ذلك فيما إذا هدمها هادم، وقد قدمنا بعض كلا منا، ولا شك أن صفة التأليف التي بها قوام الكنيسة غير مضمونة كصفة الصليب والمزمار وكذا يظهر لي في ذوات الآلات في الحجر ونحوهن كما لا يضمن الخمر اللهم إلا أن يقال إنه يضمنها لأهل الذمة فلا يبقى شيء آخر وهو التعذير، وهنا يفترق الحال، فإن كانت الكنيسة مما يتحقق أنه قد لزمنا أن لا نهدمها فيكون قد أقدم على حكم تحريمه فيعزر. وان كان أقدم في الصورة التي فرضنا حيث لا نحكم بذلك لعدم المقتضى فلا يعزر لن الحكم بالتعزير يستدعي تحقق سببه ولم يوجد، وإعادة التي هدمها هادم كإعادة المهدمة بنفسها»[1].

هذا بالنسبة للمذاهب جميعها أما بالنسبة لمذهب السبكي وهو الشافعية فإنه يقول:

«وبالجملة المشهور من مذهبنا التمكين من الترميم، والحق عندي خلافه وهو المشهور من مذهب مالك وأحمد، وقال القرافي المالكي يمنعون من ترميمها خلافاً للشافعي والمدرك أنها من المنكرات والعين التي تناولها العقد قد انهدمت والعود لم يتناوله العقد وهو منكر تجب إزالته»[2].

ولم يقتصر دور أهل الذمة على مساندة المغول وقت دخولهم للمنطقة، بل وأثناء غيابهم، فكانوا يهاجمون المسلمين ويأخذونهم ويبيعونهم للفرنج، فرد عليهم السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤ هـ /١٢٦٥م بأن شن غارة على قارة أسفرت عن قتل الكثير منهم وسبى منها ألف نفس تشفع للباقي رئيسها أبو العز، فقبل الظاهر شفاعته، لأن أبا العز أكرم الظاهر بيبرس لما ساق خلف المغول بعين جالوت، وقام الظاهر بهدم كنيستها وبناها جامعاً، ونقل إليها بعضاً من المسلمين وصيرها دار إسلام. وكان الفقهاء قد حكموا في نقض أهل الذمة لعهدهم أن الأمام يتخير فيهم بين أربعة أشياء هي القتل والمن والاسترقاق والمفاداة، وليس تخيره على سبيل التشهي بل ما يظهر مصلحة المسلمين، لذلك نرى أن الظاهر بيبرس اختار القتل لأنه رأى

١- السبكي: فتاوى، ص ٤٠٧-٤٠٨.

٢- السبكي: المصدر نفسه، ص ٤١٧.

مصلحة المسلمين تقتضي ذلك[1].

لذلك فقد بادر أفراد الحكومة، والأمراء والسلاطين إلى إصدار المراسيم بإلزام أهل الذمة بارتداء لباس مميز عن المسلمين، كذلك أصدر السلاطين مراسيم تحد من وظائفهم في الدولة وقصروها على وظائف محددة، ففي سنة ٦٨٠ هـ /١٢٨١م جاء مرسوم السلطان بأن يسلم أهل الذمة من الدواوين والكتبة، ومن لا يسلم يقتل فأسلموا مكرهين، وكانوا يقولون آمنا، وحكم الحاكم بإسلامنا بعد أن عرض من امتنع منهم على الصلب بسوق الخيل، وجعلت الحبال في أعناقهم[2]. وقد صرف أهل الذمة سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ عن المباشرات الديوانية بأمر الملك المنصور قلاوون[3].

كما فرض الأشرف خليل بن قلاوون على الدواوين بدمشق أن يدخلوا في الإسلام، ومن امتنع يؤخذ منه ألف دينار، فأسلم أربعة من كبار الدواوين، كما أصدر الأشرف مرسوماً يمنع أهل الذمة من دخول مقام الخليل، وكانوا قبلا يدخلون ويدفعون مالاً مقابل دخولهم[4].

وربما هدف السلاطين من ذلك ضم جميع فئات المجتمع إلى جانبهم عند دخول المغول المنطقة، فالعدو يعتمد عند الدخول على الفئات المعارضة للسلطة، أو الفئات المضطهدة ليستطيع من خلالهم النفوذ والوصول إلى ما يريد، فعند دخول المغول للمنطقة في عهد هولاكو أطلقوا لأهل الذمة الحرية ليستطيعوا القضاء على نفوذ المسلمين، والقوة الأكبر، أما أهل الذمة فهم تحت سيطرتهم.

وكان الحذر من قبل السلاطين منصباً على أهل الذمة، خوفاً من تعاضدهم وتعاونهم مع المغول مرة أخرى لذلك فإنهم منعوا من ركوب الخيل والبغال وذلك سنة ٦٩٤ هـ /١٢٩٤م، وقد أوعز إلى المسلمين أنه من رأى أحداً من أهل الذمة يخالف ذلك فله الحق في سلبه. وكان منعهم من ركوب الخيل والبغال منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد جاء في شروطه أن يمنعهم المحتسب من ركوب الخيل، وحمل السلاح والتقلد بالسيوف، وإذا

١- ابن شداد: تاريخ الظاهر، ص ٣٥٧-٣٥٨- النويري: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٢٩٢-٢٩٣ – ابو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤- الذهبي: العبر، ج ٥، ص٢٧٥-٢٧٦- السبكي: المصدر نفسه، ص ٤١٩- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٢٤-٤٢٥- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ١٤٠.

٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٩٤.

٣- ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٣.

٤- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٤٢- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٥، ص ٢٧٤.

ركبوا البغال ركبوها دون سرج[1].

كذلك صدر قانون آخر سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠٠م يمنعهم من ركوب الخيل والبغال إضافة إلى منع أهل الذمة من العمل بديوان السلطان ودواوين الأمراء. كما فرض أن يلبس النصارى العمائم الزرق، واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر، وهدد المخالفون، فالتزم النصارى واليهود بما أمروا به إلا أهل الكرك فإن جمال الدين آقوش الأفرم رأى الإبقاء على حالهم، فلم يغير أهل الكرك والشوبك العمائم البيض[2].

ومن خلال ما ذكر فيما مضى يلاحظ أنهم تمتعوا بحرية ولو لفترة قصيرة، ولولا الأعمال المخلة التي تؤدي إلى الاضطراب السياسي والعسكري والديني والتي تفيد العدو المغولي، لما أقدم السلاطين أو غيرهم من الأمراء على اتخاذ الإجراءات ضدهم.

وقد تدخلت الهيئات الدينية المسلمة في بعض الأحيان ضد أهل الذمة، ففي سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م أراد السلطان الناصر محمد أن يجعل أهل الذمة يرتدون العمائم البيض بالعلامات مقابل مبلغ يدفعونه من المال. لكن ابن تيمية سعى عنده في إبطال ذلك، إضافة إلى دفع ٧٠٠ ألف دينار كل سنة للديوان ولولا أعمالهم المضرة بالمجتمع لما انتقض ابن تيمية هذا القرار[3].

وقوبلت محاولات النصارى بإدخال الأشخاص إلى دينهم وتصييرهم بعقوبات شديدة من الحكومة، ففي سنة ٧١٤ هـ /١٣١٤م قتل موسى بن سمعان النصراني كاتب قطلوبك الجاشنكير لأنه نصر مسلماً وكواه على يده مثال الصليب[4]. ولم يسلم اليهود من بعض الأحكام التي صدرت بحق أهل الذمة فقد خربت كنيستهم المعروفة بالقراثيين سنة ٧٢١ هـ/١٣٢١م بدمشق، حيث اجتهد المسلمون بهدمها، واثبتوا أنها محدثة، بينما أثبت اليهود عند بعض القضاة أنها قديمة، وكانت بدرب الفواخير الذي أغلب سكانه يهود، وانتهى الأمر بان أذن للمسلمين بهدمها[5].

١- ابن بسام المحتسب: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٢٠٧- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣٤٠.

٢- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤١٨- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٦. ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج ١، ورقة ٨٧- المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١١-٩١٢- المقفى الكبير، ج١، ص٣٤٨- ج٢، ص٢٣٧- العيني: المصدر نفسه، ج٤، ص١٤٠ -(ماير): ل. آ: الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، مصر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٥٢- ص ١١٧- قاسم (عبده): دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، مصر، درا المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، ص ٨٤-٨٥.

٣- السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٨٤- ماير: المرجع نفسه، ص ١١٨- قاسم: المرجع نفسه، ص ٨٥.

٤- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٤٢.

٥- الذهبي: ذيول العبر، ص ١١٦- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٩- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٩٩- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ٢١٥.

وقد مارس أهل الذمة دوراً سلبياً ضد المسلمين سنة ٧٤٠ هـ /١٣٣٩م حيث أقدموا على رمي النار في مدينة دمشق، وظنوا أن أحداً لم يعرف بذلك، فاخترقت بذلك أماكن دينية وتجارية وصناعية كما ضاع للمسلمين أموال جسيمة، إذ احترق قسم من الجامع الأموي، وقيسارية القواسين، وبعض قيسارية الحمير، وقسم من المدرسة الأرمينية، ولكن الحقيقة لم تطمس لوقت طويل فعلم نائب دمشق تنكز بأمر الفاعلين، وثبت لديه أنهم من كتاب أهل الذمة وعددهم اثنا عشر كاتباً منهم كاتب سنجر الجمقدار، والمكين عامل الجيش، وكاتب الحوطات، فعاقبهم نتيجة لذلك جسدياً ومادياً، فقد فرض عليهم مليون ومائتي ألف درهم، وذلك على أربعة منهم، ثم سمروهم على الجمال، وداروا بهم دمشق، وأحرقوا بالنار كما فعلوا هم بالمسلمين، واحترق للمسلمين أشياء كثيرة، ففرض على أهل الذمة، واستخرج منهم بالضرب والمقارع تسعون ألف دينار رسم بصرفها في عمارة ما احترق من الأملاك كالجامع الأموي، ولما علم السلطان بذلك لم يرق له هذا العمل وانزعج وخاف ان يعامل المسلمين في القسطنطينية بالسوء، وطلب من تنكز ان يرسل له الأموال، لكن الأخير رفض وتابع عمارة الجامع[1].

وقد حرم على نائب السلطنة البت بهذا الأمر، وهو مقصور على السلطان فقد قيل في ذلك «والأمر في ذلك للسلطان نفسه لا لنائبه فإن القتل في ذلك عظيم فليس للنائب أن يستقل به حتى يشاور مولانا السلطان. ولكن التقدير لا بد منه على كل حال ويستقل به نائب السلطان من غير مشاورة وهو متعين والتقدير في مثلهم بحسب رأى نائب السلطنة وأن ذلك يختلف باختلاف ما يظهر له من أحوالهم، وأما بعد الفعل فإنه اجترأ على المسلمين والسكوت عليه وصمة فيهم ويثاب ولي الأمر على إنكاره، ولا يقول أحد إنهم يقررون على ذلك بلا تقدير»[2].

وقد اقتضت الظروف السياسية التي كانت تعيشها المنقطة محاربة أهل الذمة إذ منع السلطان سنة ٧٥٥ هـ /١٣٥٤م اليهود والنصارى من الخدمة في الأعمال والا يستخدم نصرانياً ولا يهودي في ديوان السلطان، ولا في شيء من دواوين الأمراء، ورسم أن تكون عمامة النصراني واليهودي عشرة أذرع ويلزموا بزيادة صبغها والا يستخدموا مسلماً وان يركبوا الحمير بالأكف، وان تلبس نساؤهم ثياباً مغايرة للزي حتى الأخفاف تكون لونين، ولا يدخلن الحمامات مع

١- الشجاعي: تاريخ الناصر، ص ٧٤-٧٦- الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢٤٦- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٨٦- ابن حبيب: تذكرة، ج ٢، ص ٣١١- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٩٥-٤٩٦-٤٩٨- المقفى، ج ٢، ص ٦١٥- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٢٦.

٢- السبكي: المصدر نفسه، ص٤١٩.

المسلمات، وهذا يعني استمرار عدم الوثوق بهم رغم الأعمال التي كانوا يتولونها[1].

وقد شدد عليهم من ناحية اللباس والركوب سنة ٧٦٥هـ /١٣٦٣م، إذ ألزموا بلبس العمائم الصفر وتصغيرها، وعدم استخدامهم في شيء من الأعمال، وأن لا يركبوا الخيل والبغال والحمير بالأكف بالعرض، وأن تلبس نساؤهم الأجراس في رقابهن، واحد النعلين أسود والآخر مخالفاً للون الآخر، وقد ذم بعض الفقهاء لبس أهل الذمة للون الأصفر، وبرروا ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلبسه وكذلك الخلفاء من بعده كعثمان، وقد استخدم اللون الأصفر كزي للأنصار حيث كانوا يشهدون به المحافل والمجالس[2].

وقد ورد مرسوم سنة ٧٦٧هـ /١٣٦٥م وآخر سنة ٧٨٢ هـ/١٣٨٠م برد ما أخذ من نساء النصارى من الجباية، ومنع نسائهم من دخول الحمامات مع المسلمات، وإنما تدخل نساؤهم حمامات تختص بهن، ومن دخل من أهل الذمة الرجال مع رجال المسلمين يضعون في رقابهم علامات يعرفون بها من أجراس وخواتيم وأن تلبس النساء خفين مخالفين في اللون يكون أحدهما أبيض والآخر أصفر وربما يكون هذا القرار بسبب ما تعرضت له البلاد من هجوم فرنجي وخاصة على الإسكندرية في مصر[3]. ذلك أن السلطان خاف من استغلالهم للظروف السياسية، وقيامهم بأعمال غير لائقة بالمسلمين انتقاماً منهم.

ورغم كل هذه الإجراءات التي اتخذت بحقهم قبل قدوم تيمورلنك للمنطقة إلا أننا لم نسمع أنهم قاموا بأي دور سلبي أثناء قدومه، ويدل على ذلك توقف نشاطهم السياسي، غير أن نشاطهم الديني لم يتوقف ويستخلص من ذلك أنهم رغم انعزالهم في أحياء خاصة بهم، وممارستهم لأعمال تخصهم كالتجارة والصياغة وغيرها، إلا أنهم شاركوا في أعمال السلطة، فقد تعين منهم عدد لا بأس به في مراتب حكومية مهمة كما عمد السلاطين في بعض الأحيان إلى إدخال هؤلاء الذين يعملون في دواوين الحكومة في الإسلام. وهؤلاء أنفسهم لم يشعروا باضطهاد حقيقي متعمد سواء من الشعب أو الحكام ومارسوا عباداتهم بحرية تامة، ومع أن المغول قد اضطهدوا المسلمين عند دخولهم للمنطقة، وفضلوا أهل الذمة عليهم وجعلوا لهم الحظوة، إلا أنهم لم يسمحوا لهم بإقامة إمارات مسيحية مستقلة، أو كيان مستقل ضمن الدولة الإسلامية[4].

١- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ٣، ص ٩٢٤.

٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣٠٥-٣٠٦- السبكي: المصدر نفسه، ص ٤٠٢.

٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣١٧- العسقلاني: أنباء، ج ١٢، ص ١٨- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١١، ص ٢٩.

٤- المقريزي: المقفى الكبير، ج ١، ص ٣٣٨- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥١٣.

٣- الزهد والتصوف:

أ - نشأة الزهد وتطوره:

كانت ظاهرة الزهد والتصوف موروثة عن العصور السابقة، فبذور التصوف ظهرت منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم عند أهل الصفة، واستمرت نزعات الزهد في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي بسبب عوامل كثيرة منها المبالغة في الشعور بالخطيئة، والخوف الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله. وقد تطورت معاني الزهد في القرن الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين وتحول إلى تصوف وأصبح للتصوف نظام كامل[١].

وقد اختلف الفقهاء والعلماء في تعريف الزهد والتصوف، وعرفه كل واحد منهم بحسب معرفته ودراسته وارتباطه بهذا السلك، فابن الجوزي ذكر أنه رياضة النفس، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق الحميدة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص إلى غير ذلك من الخصال التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الآخرة. بينما عرفه الغزالي بأنه «التصوف أمر باطن لا يطلع عليه، ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته، بل بأمور ظاهرة، يعول عليها أهل العرف في إطلاق اسم الصوفي. والضابط الكلي أن كل من هو بصفة إذا نزل في خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكراً عندهم، فهو داخل في غمارهم، والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات: الصلاح، الفقر، وزي الصوفية، وأن لا يكون مشتغلاً بحرفة، وأن يكون مخالطاً بطريقة المساكنة في الخانقاه»[٢].

وكان الزهاد أو المتصوفة يبتعدون عن الحرمات والمباحات، ومنهم من لا يزيد طعامه عن الخبز الشعير لأنه يلائم خشونة اللباس، وبعضهم يتناول اليسير كل يوم، وبعضهم لا يتناول الطعام أياماً حتى تضعف قوتهم، ويمكن تفسير ذلك، بأنهم يقتدون طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطعام فقد كان يرضى بالقليل، فإن أحب الطعام أكله، وإن كرهه تركه، وكان صلى الله عليه وسلم يأكل خبز الشعير غير منخول، وماذم طعاماً قط، فقد قال الغوالي في ذلك «وماذم طعاماً قط لكن أن إعجبه أكله، وإن كرهه تركه وإأن عافه لم يبغضه إلى غيره... وكان يلعق بأصابعه الصفحة ويقول آخر الطعام أكثر بركة، وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر، وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة»[٣].

١- نيلولسون: (رينولد): في التصوف الإسلامي وتاريخه، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٣٨٨ هـ/١٩٦١م ص ٢٠-٢١.

٢- الغزالي: (محمد بن محمد) (حياء علوم الدين، مصر، مطبعة عيسى البابي، ١٣٥٨ هـ /١٩٣٩م، ج ٢، ص ١٣٥- ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي: تبليس إبليس، مصر، مطبعة النهضة، ١٣٤٧ هـ /ص١٦٢-١٦٣.

٣- الغزالي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٠-٣٧١.

والواضح أن الصوفية كانوا فريقين، فريقاً يبالغ في الإقلال من الطعام ويروض نفسه على الجوع وفريقاً آخر يتسامح بعض التسامح فيسمح لنفسه بأكل ما يصل إليه من الأطعمة[1]. ونتيجة للحوادث السياسية وما رافقها من اضطرابات اجتماعية مرتبطة بالهجوم المغولي زاد انتشار الزهد والتصوف كرد فعل للأعمال العدوانية المغولية تجاه سكان بلاد الشام.

ب: - قيام الأربطة والزوايا ودورها والحياة داخلها:

وقد أقام المتصوفة في أمكنة أطلق عليها الرباط، الزاوية، الخانقاه، ففي العصور الإسلامية الأولى نشأ الرباط من أجل حماية الثغور، ثم أصبحت الربط ملتقى للمتصوفة، ولكن منذ القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي أصبحت هذه الكلمات تستعمل دون تفريق لإقامة الصوفية بها.

وكان للرباط شيخ وخادم، وكان الشيخ يعين في الغالب من قبل الحكومة، ورتبة المشيخة من أعلى المراتب في طريقة الصوفية. ومن أهم واجباته الإشراف على الرباط، وتدريب المريدين، وهم المنضمون إلى الرباط أو الزاوية أو الخانقاه، أما الخادم فأهم واجباته تنظيف الرباط، والسهر على راحة النزلاء فيه، ومباشرة أوقاف الرباط، أو الخانقاه، وتقرير أمور الصوفية وقد ذكر السهروردي حين قال: «**الخادم يدخل في الخدمة راغباً في الثواب، وفيما أعد الله تعالى للعباد، ويتصدى لإيصال الراحة ويفرغ خاطر المقبلين على الله تعالى من مهام معاشهم**»[2].

ومن الوظائف الأخرى التي كانت ملحقة بالزوايا والأربطة وظيفة الخازن، والنقيب إضافة إلى وظيفة الإمامة[3].

وكانت أعلى مرتبة بها هي مرتبة شيخ الشيوخ، وقد حظي شيخ الشيوخ بمنزلة اجتماعية وسياسية رفيعة جداً، ولم يقل دوره عن دور القضاة وكبار العلماء، وكان حلقة اتصال بين الصوفية والسلطان، وللصوفية أهمية خاصة في نظر أهل الحكم لما يخلقوا للسلطة من متاعب. وقد وجدت هذه الوظيفة في فترة البحث[4].

١- ابن الجوزي: تبليس، ص ٢٠٦-٢٠٧- مبارك: التصوف، ج ٢، ص ١٨٦.

٢- السهروردي: «شهاب الدين بن جعفر بن عمر بن محمد»: عوارف المعارف، ليس له طبعة، ج ١، ص ٤٩- السبكي: معيد النعم، ص ١٢٦- ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب ج ١، ورقة ٣٩- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٥٣٢- زيادة: المرجع نفسه ص ١٢٥-١٢٦.

٣- الدمشقي: الوفيات، ج ١، ص ٢٦- السخاوي: الضوء، ج ٢، ص ٢٧٩.

٤- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٦- ابن حبيب: ج ١، ص ٥٦- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٢٧- السخاوي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦- لابيدوس: ص ١٧١- زيادة: دمشق، ص ١٦٢- زعرور: الحياة الاجتماعية، ص ١٥١.

ويبدو أن مشيخة الشيوخ في بلاد الشام كانت تابعة لشيخ الشيوخ في مصر، وكان السلطان نفسه يقوم بتعيينه بمرسوم ملكي، فالناصر محمد بن قلاوون أصدر مرسوماً بتقليد الشيخ نظام الدين الأصفهاني مشيخة الشيوخ في مصر والشام، وقد خوله المرسوم الإشراف على مواريث الصوفية وأوقافهم، وقد يكون شيخ الشيوخ أحياناً من الشام وليس من مصر فقط، فقد ذكر ابن حبيبي أنه تولاها شرف الدين أبو بكر بن محمد الجويني (ت ٦٧٨ هـ /١٢٧٩م)، وذكر ابن كثير والنعيمي أنه تولاها بدر الدين بن جماعة خطيب الخطباء وبناء على طلب الصوفية، وصفي الدين الهندي، ومؤرخون آخرون ذكروا أن نجم الدين بن صصري تولاها سنة ٧١٦ هـ /١٣١٦م بناء على توصيات الصوفية[1].

أما الشخص المنتسب للرباط فكان يسمى المريد، وكان يرتبط بشيخه فيخلع عليه خرقة التصوف، ويسمى الزمن الذي يمضيه المريد مع الشيخ زمن الارتضاع[2]. وكانت المدة التي يقضيها المريد قبل أن يؤذن له بالعهد ثلاث سنوات، فالسنة الأولى يقضيها المريد في خدمة القوم، والثانية في خدمة الله، والثالثة في مراقبة كلية. وقد كان المتصوفة يهتزون عند الاستماع للموسيقى والغناء ويقومون أحياناً بالتصفيق ويصيحون وقد بلغت الحال بأحد المتصوفة وهو محمد بن عثمان بن علي المعروف بابن الرومي (ت ٦٨٤ هـ /١٢٨٥م) أن خلع جميع ثيابه ورقص عرياناً ولم يبق عليه إلا السراويل، وإذا ما تمكن الطرب منهم في حال رقصهم جذب أحدهم بعض الجلوس ليقوم معه. وقد كان لاختلاف المذاهب أثر في استماعهم للموسيقى ومشاركتهم فيها، فالحنابلة لا يرون الضرب بالآلة بل بالكف[3].

وكان ساكن الرباط أو الزاوية ينصرف كلياً إلى العبادة، وترك الاكتساب ويعتني بالرياضة والمجاهدة، والروحانيات والخلوة حتى إن بعضهم كان يقيم في الدولة أربعين يوماً لا يخرج إلى الجمعة، ويصبح الرباط مكاناً لمأواهم وبيتهم، كما يصبح المصدر لإطعامهم وسبيلاً لهم وقد ذكر السهروردي ذلك فقال:

«شرائط ساكن الرباط قطع المعاملة مع الخلق وفتح المعاملة مع الحق، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الشباب وحبس النفس عن المخالطات، واجتناب التبعات، وعانق ليله

١- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص٣٧٦- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٢- ج١٤ ص ١٧-٢٦-٧٦- ابن حبيب: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٦- المقريزي: المقفى، ج ١، ص ٧١٦- النعيمي: الدارس، ج ٢، ص ١٥٦- حمادة: دراسة وثقية، ص ٤٠٢-٤٠٥.

٢- السهروردي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٧- اليونيني: ذيل مراة، ج ٣، ص ٥١- الذهبي: ذيول العبر، ص ١٩٧- العيني:/ المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦١- السخاوي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٥.

٣- ابن الجوزي: المصدر نفسه، ص ٢٥٠-٢٧٥-٢٥٨-٢٦٠ – اليونيني: ج ٤، ص ٢٧٤- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٤٦.

ونهاره العبادة متعوضاً بها عن كل عادة، شغله حفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات ليكون بذلك مرابطاً مجاهداً»[1].

واكتفى المتصوفة باللباس الخشن، كالصوف، والمرقع، وقد فضلوا لبس الصوف، وكان شارة الزهد وقد جعله الغزالي من صفات من يصرف إليهم ما يوصى به للصوفية، وقد كره بعض شيوخ الصوفية لبس المرقعة خوفاً من طوارق الرياء ومن التعرض للسؤال، وهي لا تكون علامة للرياء إلا عندما تكون علامة قاطعة على التصوف، وهي لا تعرض صاحبها للصدقات إلا لدلالتها على الفقر والبؤس، وكان نزع المرقعة علامة الإقبال على الدنيا[2].

أما طعام المتصوفة فقد أتاهم من عدة طرق، عن طريق الأحباس، الأوقاف، الصدقات، حيث أن بعض المحسنين كانوا يقدمون ما تجود به أنفسهم إلى شيخ الزاوية الذي يقسمه على المريدين، وكان يتولى النقيب مهمة التوزيع، وأحياناً كان يأتيهم الطعام عن طريق السؤال، أو بمرسوم سلطاني، فالمنصور قلاوون قرر للشيخ أبي عبد الله محمد بن الشيخ غانم المقدسي كل شهر غرارتين قمحاً بالكيل النابلسي إنعاماً مستمراً، غير أن بعض الزوايا لم يكن لها مرتب ولا وقف كزاوية الشيخ محمد بن قوام البالسي (ت ٧١٨ هـ /١٣١٨م) حيث رفض أن يعطي مرتب لزاويته أكثر من مرة. وكان قسم قليل من المتصوفة لا يرضى أن يقيم بالزاوية أو الرباط ليأكل ما تدره عليهم، بل يعمل بيده ليتقوت من عمله كأبو العباس الزرعي (ت ٧٦١ هـ /١٣٥٩م) كان يتقوت من عمل العبي[3].

وقد أورد الشعراني كيف تقسم الحصص على المتصوفة حيث قال:

«يجب على الشيخ إذا وقع على يده قسمة دنيا بين الفقراء أن لا يخص أحداً منهم بشيء زائد على غيره إلا أن تكون حاجته ظاهرة للفقراء كلهم بحيث يحنوا عليه ويرقوا لحاله، وليحذر أن يأخذ مع الفقراء نصيباً له أو لولده فيكون كأحدهم في دناة المروءة وتذهب رياسته عليه بل يجب عليه أن يرفق كلما دخل على المساكين والأرامل وغيرهم ولا يلحس منهم لحسة ولا يأخذ منه فلساً ولا يدخله بيته أبداً ثم يخرجه للفقراء بعد ذلك فإنهم يتهمونه في الأخذ منه قياساً على نفوسهم لو أخلوا به فمن فعل ما ذكر مع الفقراء وأعظم في أعينهم وهذه شروط

١- السهروردي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٧- اليونيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٦١- ج ٤، ص ١٩٩- العسقلاني: الدرر، ج ٢، ص ٢٤٠-٢٥٩- السخاوي: الضوء، ج ٥، ص ١٢٥- ج ٩، ص ٢٨٩- العليمي: الأنس الجليل، ج ٢، ص ١٦٠.

٢- الغزالي: إحياء، ج ٢، ص ١٣٥- ابن الجوزي: ص ١٨٦- ابن شاكر: فوات ج ١، ص ٣٥٧- مبارك: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٧.

٣- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ٢٣١- النعيمي: الدارس، ج ٢، ص ٢٠٨-٢٠٩- العليمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٦- نيلولسون: المرجع نفسه، ص ٥٦.

خاصة بالفقراء الصادقين»[1].

واختلفت طريقة عيش المريدين في الزوايا باختلاف الأطعمة التي كانت تقدم لهم، فبعض الزوايا يهدى لأهلها الخبز القفار، وبعض الزوايا تحمل إلى أهلها أطايب الطعام، وقد صرح الشعراني أنه ينبغي للشيخ أن يخرج من الزاوية كل من غير وبدل عهود الفقراء التي دخل الزاوية على نيتها[2].

ج - طريق التصوف والآثار الناجمة عن انتشارها:

كان لانتشار طرق التصوف في بلاد الشام آثار كثيرة منها بناء الأربطة والزوايا، إضافة إلى كثرة بناء المساجد والمدارس الدينية وغيرها، وانضمام الكثير إلى هذه الأربطة والزوايا بفعل الأوضاع السياسية المضطربة التي عاشتها المنطقة من جراء الغزو المغولي، فلا بد أن يكون الأهالي أو العامة قد لجأوا إلى الزوايا عند دخول الغزاة إلى المدن لتأمين الطعام والشراب لهم، إضافة إلى أنه لشيوخ الزوايا رأي في مثل هذه الأوضاع. وكانت بعض الطرق التي انتشرت مستحباً وبعضها موروثاً، وكان لهذه الطرق دور هام في الحياة الاجتماعية، فقد مارس داخلو سلك التصوف دوراً اجتماعياً هاماً في محاربة الفساد والانحلال الأخلاقي الذي ساد أثناء الغزو، إضافة إلى مفاوضة حكام المغول أثناء الحصارات العسكرية على المدن، وتقوية الروح الدينية لدى العامة عن طريق الأفكار التي نشروها عن الجهاد. إضافة إلى تقديم المؤن والمساعدات للعامة. كما أن بعضهم شاركوا المدن الحياة الإدارية، حيث نصب الكثير منهم قضاة، أو مدرسين في المدارس أو احتلوا مناصب إدارية أخرى وكانت أهم الطرق الصوفية المنتشرة:

- **الطريقة القادرية:** اشتهر من صوفيتها نجم الدين إبراهيم البعلبكي (ت ٧٤٠ هـ ١٣٣٩م) وغيره كثير[3].

- **الطريقة الرفاعية:** وكان من مشايخها حسن بن الرفاعي ت ٧٧٧ هـ /١٣٧٥م[4] وغيره كثر.

- **الطريقة البكائية:** وقد قيمت لهذه الطريقة زوايا كثيرة وخاصة بالقدس والمنطقة الجنوبية من بلاد الشام. وقد اشتهر من صوفيتها عمر بن شمس الدين أبو عبد الله الجفري[5].

١- الشعراني: (عبد الوهاب): البحر المورود في المواثيق والعهود، ليس له طبعة، ص ٢٦٨.

٢- الشعراني: المصدر نفسه، ص ٢٧٢- زكي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٧.

٣- الذهبي: ذيول، ص ٢١٢- السخاوي: المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٤٧- النعيمي: ج ٢، ص ١٦٨- زيادة: المرجع نفسه، ص ١٢٨-.

٤- المقريزي: المقفى، ج ١، ص ٤٦٠- العسقلاني: إنباء، ج ١، ص ١٦٤- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٦، ص ٣٣٤.

٥- العليمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٥-١٥٦.

- **الطريقة الحريرية:** كانت منتشرة بكثرة وممن اتبعها الصدر الأديب نور الدين أحمد ابن إبراهيم بن عبد الضيف بن مصعب الدمشقي ت ٦٩٦ هـ /١٢٩٦م، وقد سافر مع الفقراء الحريرية لبلاد كثيرة ومنها مصر. كذلك اشتهر منها الشيخ علي الحريري وهو الذي أنشأ الزاوية الحريرية ظاهر دمشق سنة ٦٤٥ هـ /١٢٤٧م[١].

- **الطريقة الأحمدية:** أظهر ابن تيمية إنكاراً لما يفعلونه من دخولهم النيران المشتعلة وأكلهم الحيات ولبس الأطواق الحديد في أعناقهم وتقلدهم بالسلاسل على مناكبهم، وعمل الأساور الحديد في أيديهم، ولفهم شعورهم وتلبيدها. وقد أظهر الفقهاء أن هذه الطائفة مبتدعة[٢].

- **طريقة ابن عربي:** منشؤها محمد بن علي بن محمد بن احمد بن عبد الله الحاتمي، ويعرف بابن عربي، وقد جاء من الأندلس حاجاً ولم يعد بعدها إلى الأندلس وأقام بمصر، ثم انتقل للحجاز، وأقام بدمشق حتى توفي بها سنة ٦٣٨ هـ /١٢٤٠م، وكان له أنصار وأتباع كثر منهم أحمد بن محمد بن عثمان النابلسي نزيل غزة[٣].

- **الطريقة اليونسية:** ينتمون إلى يونس الشيباني، وقد ذكر المؤرخون أن له كرامات، وكانوا يذكرون بأنهم شر الطوائف، ولهم أعمال تدل على الاستهتار والانحلال قولاً وفعلاً، وقد انتشرت زوايا باسم هذه الطريقة خاصة في مدينة القدس[٤].

- **الطريقة القلندرية:** انتشرت بكثرة بين العامة، وقامت لها زوايا باسمها وخاصة في القدس، ومؤسسها إبراهيم القلندري، وممن اشتهر من شيوخها في هذه الفترة محمد بن يونس جمال الدين الساوجي حيث قدم دمشق وسكن قاسيون، وأبو القاسم الكاشغري (ت ٧١٧هـ) الذي دفن بمقابر الصوفية. وقد أمرهم السلطان في نيابة بيدمر سنة ٧٦١هـ، بترك حلق لحاهم وحواجبهم وشواربهم، وترك زي الأعاجم والمجوس[٥].

- **الطريقة الحيدرية:** كان من شعار صوفيتها لبس الفراجي والطراطير وقص اللحى وترك الشوارب وهو خلاف السنة وقد بنيت لهم زاوية بظاهر دمشق قريباً من العونية[٦].

١- النويري: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٣٩١- العيني: ج ٣، ص ٣٧٥- ابن تغري بردي: ج ٥، ص ١٠٤- النعيمي: ج ٢، ص ١٩٧.

٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣٦- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٦- المقفى: ج ١، ص ٤٦٠.

٣- السخاوي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٠- مبارك: ج ١، ص ١٥٩.

٤- النعيمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢١٤- غوانمه: نيابة المقدس، ص ١٧٦ – زيادة: المرجع نفسه، ص ١٢٨.

٥- المقريزي: المقفى، ج ٦، ص ٢٩- ج ٧، ص ٥٢٢- النعيمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٠ – العليمي: الأنس الجليل، ج ٢، ص٦٤- زيادة: المرجع نفسه، ص ١٢٨- دهمان: ولاة، ص ٢٢.

٦- النعيمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٢.

- **الطريقة الوفائية**: انتشرت أيضاً في المنطقة وقد أقام جماعتها زوايا اشتهر منها الزاوية الحمراء بالقدس[1].

أن انتشار هذه الطرق بكثرة أدى إلى انغماس بعض هؤلاء المتصوفة في حياة المدن الوضيعة، وقد أثاروا في بعض الأحيان آراء منحرفة وغير إسلامية بين العامة من الشعب، ومثل بعضهم الآخر الاتجاه العاطفي للشعور الديني الإسلامي المتزمت، وغالباً ما هاجم مشايخ الصوفية محلات الخمر، وأدانوا استعمال الحشيش بشدة، وقد أدت هذه الغارات إلى حدوث الاضطرابات، حيث اصطدمت بعض الزمر الشعبية التي تساند أو تعارض الصوفية بعضها مع بعض، فقد هاجم المتصوفة محلات الخمر سنة ٦٥٨ هـ /١٢٥٩م وقاموا بتحطيمها، فقام بمحاربتها مهوشو الكلاب، ومدربو البزاة وشنوا هجوماً معاكساً على مسجدهم، واسروا بعض المتصوفة، لذلك أنهى الصوفية هذه الأعمال. كما تكررت الحادثة سنة ٧٥٨ هـ /١٣٥٦م حيث أتلف الصوفية أواني الخمر وأدوات الحشيش في الأماكن المختصة بذلك، فنتج عن ذلك أن تناوشوا مع الرعاع، وقد تدخلت السلطة لصالحهم، غير أن العامة كانت ضدهم، وكثرت الاضطرابات والمشاكل فاضطر ذلك السلطة إلى قمع ذلك بالقوة حيث قامت بضرب بعضهم، وطيف بهم في البلد[2].

وقد أدى ازدياد الثقة بهؤلاء المتصوفة من قبل العامة، وكإرضاء لهم من قبل السلطة، أعطوا مناصب إدارية تخص العامة كالقضاء مثلاً، فقد شاركوا المدن حياتها الإدارية، ومن الذين تولى منصب القضاء خير الدين بن العجمي قرر في قضاء الحنفية بالقدس، وموفق الدين العجمي في قضاء الحنيفة بغزة[3].

وقد زاد انتشار الطرق الصوفية عدد الزوايا والصوفية، كما ساعد على تطور وتوسع دورها، ومما ساعد أيضاً على تطور دورها ارتباطها بالحرافيش وتنظيمهم المسلح، فالزاوية في الماضي لم تتعد كونها مكاناً لاجتماع بعض الشيوخ ومريديهم، ثم تطورت إلى أن أصبح دورها سياسياً، ثم تطورت حتى أصبح دورها اجتماعياً، فقد أصبحت مكاناً للعمل على اختلاف أنواعه، غير أن أكثر العلوم التي درست فيها العلوم الفقهية، وقلما تخلو ترجمة من تراجم الشخصيات الفقهية أو الدينية من ذكر من مارس التدريس في إحدى الزوايا،

١- العليمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٧- زيادة: المرجع نفسه، ص ١٢٨.

٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٥٧- لابيدوس: مدن الشام، ص ١٧١-١٧٢.

٣- ابن تغري بردي: / النجوم، ج ١١، ص ٢٢٨- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٤.

كالشيخ الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن محمد الفارسي، الملايكي (الأيكي) (ت٦٩٦ هـ /١٢٩٦م)، درس بزاوية الغزالي، ومحمد بن أبي بكر بن محمد بن قوام الشيخ نور الدين بن الشيخ نجم الدين درس بالرباط النصاري بقاسيون (ت ٧٦٥ هـ /١٣٦٣م). لذلك فإنه تطورت مهمة الزوايا والأربطة فأصبحت مهمتها تعليمية ثقافية إلى جانب مهمتها التعبدية، فالمتصوفة كانوا طلاب علم أيضاً[١].

وقد تحول دور الزاوية إلى مؤسسة اجتماعية كونها ضمت فئات مختلفة من رجال ونساء، فهي متكلفة بمعيشتهم كاملاً من إطعامهم وتقديم الشراب لهم واللباس، لذلك نرى أن الزوايا والأربطة انتشرت بكثرة في هذه الفترة، فقد أورد ابن بطوطة أنه في كل مدينة من مدن الشام زوايا لإطعام الفقراء، ففي كرك نوح في البقاع زاوية يطعم بها الوارد والصادر، وبخارج مدينة صهيون زاوية مثلها، وبجبلة واللاذقية وكلها لإطعام الفقراء.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن بعض الأربطة خصصت للنساء الأرامل والمطلقات مما يعني أنها مارست دوراً اجتماعياً هاماً إلى جانب دورها الديني، ومما ساعد على تولي هذا الدور كونها ملكت إمكانات اقتصادية ومالية عالية، لذلك نستطيع القول إن الزاوية كانت مركزاً لتربية المريدين وإعداد المرشدين دينياً وإقامة وإطعام الفقراء والمعوزين إضافة إلى مهمتها الثقافية التعليمية[٢].

إضافة إلى ما قدمته الزاوية من خدمات اجتماعية، فقد كانت في بعض الأحيان مجالاً للابتعاد عن مشاغل الحياة والفرار من القيل والقال والإخلاد للهدوء إضافة إلى سماع الأصوات الشجية والألحان والموسيقى الصاخبة، ففي مجالس الذكر ينتقل الحضور من مرحلة الهدوء والتفكير إلى مرحلة من الوجد والهياج العاطفي، فتكون الزاوية قد أمنت المتعة لجميع الناس، وتكون قد ضمت دوراً جديداً مارسته على صعيد الحياة الاجتماعية[٣].

د - كثرة المساجد والمدارس والزوايا:

تميزت فترة البحث بكثرة إنشاء دور القرآن والحديث والمدارس الدينية والمساجد في بلاد

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣٠٦- السبكي: طبقات، ج ٦، ص ٤٥- المقريزي: المقفى، ج ٥، ص ٤٤٦- العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٧٧- غوانمة: القدس، ص ١٧٦.

٢- اليونيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص٣٠، ١٩٦- النويري المصدر نفسه، ج٣٠، ص٦٦، ج٣١، ص٢٢٣- اليافعي: المصدر نفسه، ج ٤، ص٢٤٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٤١- ٣٣- السبكي: طبقات، ج٦، ص٤٥- ابن بطوطة رحلة ابن بطوطة، ٦١-٦٣-٧٥-٧٩-٨١- العيني: المصدر نفسه، ج٢، ص٩٨، ج٤، ص٢٩٥- زعرور: المرجع نفسه ص١٥١- غوانمة: المرجع نفسه، ص١٧٧

٣- زعرور: المرجع نفسه، ص ١٥١.

الشام، فلم يعتلي سلطان من السلاطين دفة الحكم إلا وأمر بإنشاء هذه المعاهد الدينية والدور التعليمية، كذلك التجار، وذوو النعمة واليسار. ويدل هذا على أن العلماء والفقهاء الذين كانوا يتولون الأوقاف يتبرعون للسلطات المختصة بأموال الأوقاف لإنشاء هذه المعاهد الدينية، ولولا وجود الأموال، وموافقة الهيئات الدينية على إنشاء هذه المعاهد لما قامت بتلك الكثرة. ويمكن القول إن كثرة المعاهد الدينية يدل على أن الدين كان هو المعيار آنذاك، وكانت السلطة السياسية تحسب حساباً للقيادات الدينية، والقوى الشعبية، إضافة إلى كسب هذه القوى لجانبها ضد المغول عند قدومهم للمنطقة، لذلك فإن بعض ولاة السلاطين قام بهدم منشآت عمرانية وجعل مكانها دار حديث وقرآن مثل الأمير تنكز. ومن خلال كثرة هذه المعاهد لا بد من استعراض بعض أسمائها ولو بشكل سريع، وكان أهم دور الحديث والقرآن في فترة البحث:

- **دار القرآن الوجيهية:** قبلي المدرسة العصرونية والمسرورية، وغربي الصمصامية، وقفها الشيخ وجيه الدين محمد بن عثمان بن منجا الدمشقي (ت ٧٠١هـ). وكان شيخ الحنابلة ذو أملاك ومتاجر وبر وأوقاف، وقد أقام إلى جانب هذه الدار رباطاً بالقدس، وعمل ناظراً بالجامع الأموي، وكانت وفاته بدار القرآن هذه[1].

- **دار الحديث الأشرفية:** في العصرونية، عمرها زين الدين الفارقي (٦٣٣-٧٠٣ هـ) بعد خرابها في حملة غازان، وقد باشرها سبعاً وعشرين سنة بعد النووي، وكان معه إلى جانب دار الحديث هذه خطابة الجامع الأموي. والشامية البرانية وجد بها أيضاً نصير الصوفي المقرئ ت (٧١٨هـ)[2].

- **دار القرآن والحديث التنكزية:** أنشأها سيف الدين تنكز (٠٠٠-٧٤١ هـ) مكان حمام سويد الذي هدمه وهي شرقي سوق البزورية. وقد عمر أيضاً دار قرآن وحديث إلى جانب داره دار الذهب[3].

- **دار القرآن والحديث المعبدية:** أنشأها علاء الدين بن معبد داخل دمشق، وقد ذكر الحسيني في ذيول العبر إنه في سنة ست وأربعين وفي ذي القعدة توفي علاء الدين البعلبكي ودفن إلى جانب داره، ودفن والده داخل دمشق بتربة أنشأها له وجعلها دار قرآن[4].

١- النعيمي: الدارس، ج ١، ص ١٨، ج ٢، ص ١١٧- دور القرآن في دمشق، بيروت، دار الكتاب الجديد، مد ٣، ١٩٨٢، ص ٢٤- العلبي: دمشق، ص ١٧٢.

٢- السبكي: طبقات ج٢، ص١٠٧- النعيمي: الدارس، ج١، ص٢٦- المقريزي: المقفى، ج٧، ص٣٤٦- العلبي: المرجع نفسه، ص١٧٢

٣- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٣٥٥- المقريزي: المقفى، ج ٢، ص ٦٢٠ النعيمي: الدارس، ج ١، ص ١٢٣-١٢٥- العلبي: المرجع نفسه، ص ١٧٢- دهمان: المرجع نفسه، ص ١٧٢.

٤- النعيمي: الدارس، ج ١، ص ١٢٨.

- دار القرآن النبوية: درس بها الشيخ علي بن إبراهيم بن داود علاء الدين أبو الحسن بن العطار، (٦٥٤-٧٢٤ هـ)[١].

- دار الحديث الظاهرية ودار الحديث السامرية: في مئذنة الشحم، وقفها أبو العباس أحمد ابن محمد بن علي بن جعفر البغدادي السامري (ت ٦٩٦ هـ /١٢٩٦م) وقد صادره الصاحب بهاء الدين بن حنا وأخذ منه ثلاثين ألف دينار في عهد حكم الظاهر، وصادره الشجاعي في حكم المنصور وأخذ منه مائتي ألف درهم[٢].

- دار القرآن الجزرية: كانت في باب توما، ودار القرآن السنجارية: أقامها علاء الدين إسماعيل بن محمود السنجاري ت ٧٣٥ هـ عند باب الناطفانيين وكان تاجراً وقد أقام فيها جماعة يقرؤون القرآن[٣]. كما أن نفراً من أصحاب الترب كانوا يجعلون تربتهم داراً للقرآن أيضاً، وكانوا يبتغون من ذلك نشر القرآن، ومن بين الترب التي درس فيها القرآن: التربة الأفريدونية، وقد أسست في القرن الثامن[٤].

كذلك ينبغي ألا نغفل دور المدارس الفقيهة التي أقيم الكثير منها، وكانت هذه المدارس موزعة بين المذاهب الأربعة (الشافعية، الحنبلية، المالكية، الحنفية)، وكانت هذه المدارس بمثابة مدارس رسمية تخرج القضاة، وأصحاب المواريث ووكلاء بيوت المال، ويتطلب هذا معرفة تامة بالأحكام، إضافة إلى التحمس المذهبي لدى بعض العناصر في نشر هذا المذهب أو ذاك، وقد ساهم السلاطين أيضاً في إنشاء هذه المدارس وزيادتها، ذلك لأنهم كانوا يهدفون إلى توطيد سلطانهم عن طريق الدين، وكسب قوة رجال الدين الذين بدورهم يؤثرون على العامة وحاجتهم وقت الملمات[٥]. وكانت أهم المدارس التي ساهمت في نشر المذاهب ونشر التعاليم الفقهية: النديبية وكانت للشافعية الوراحية، الخاتونية البرانية، البادرائية، الامينية، الكروسية، إضافة إلى الصدرية والمسمارية، الصمصافية، الشاهينية، النصارية البرانية، الدماغية، الجاروخية، العادلية، وغيرها كثير جداً[٦].

١- السبكي: طبقات، ج ٢، ص ١٤٣.

٢- المقريزي: المقفى، ج ٥، ص ٢٢٣- العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٦٩-٣٧٢ – العلبي: المرجع نفسه، ص ١٧٣.

٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٧١- النعيمي: دور القرآن، ص ١-١٥- العلبي: المرجع نفسه، ص ١٧٢.

٤- النعيمي: مقدمة دور القرآن ص ٩.

٥- النعيمي: مقدمة دور القرآن، ص ١١-١٢.

٦- الصفدي: تحفة الألباب، ج ٢، ص ١٧٠- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٧٦-٨٢- السبكي:طبقات، ج ٢، ص ١٠٧-١٤٣- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٧٨. – المقفى، ج ١، ص ٢٤٩- ج ٦، ص ٣٨- العسقلاني: الدرر، ج ٢، ص ٣٥٦- ج ٤، ص ١١٦- العيني: المصدر نفسه، ج٣، ص٤٣-٨٥-٨٦-٨٧-٩٢-٩٤-٢٦٩- النعيمي: الدارس، ج٢، ص١١٧-١٦٨-٣١٣-٧١-٢٣٨-١٧-١٨

ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن إنشاء المساجد يقل أهمية عن إنشاء المدارس الفقهية ودور القرآن، ولم تخل مدينة من مدن بلاد الشام إلا وأقام فيها رجال السلطة مساجد، وكانت هذه المساجد مراكز للتعليم والوعظ، إضافة إلى أمور أخرى كثيرة، فقد شغل الجامع في حياة المدن دوراً هاماً في النواحي الاجتماعية والعلمية، فقد كان بمثابة الملجأ والملاذ لأهل المدن أثناء الهجوم المغولي، وكانوا يرتادونه مكبرين مهللين، ولا ينصرفون إلا بعد أن يحققوا ما جاؤوا من أجله ففي سنة ٦٨٠ هـ /١٢٨١م اجتمع الناس بأسرهم في جامع دمشق، وتضرعوا إلى الله وضجوا وبكوا، وحملوا المصحف العثماني على الرؤوس، وخرجوا من الجامع إلى المصلى خارج البلاد وهم يسألون الله النصر على الأعداء. كذلك تكرر الموقف سنة ٧٠٢ هـ حيث بات الناس في الجامع الأموي، وظلوا يدعون حتى رحل المغول عن المدينة، وكان الجامع يضم إلى وظيفته هذه وظيفة الصلاة يوم الجمعة إضافة إلى صلاة العيد الرسمية، كما كان ملتقى العلماء المسلمين الوافدين إلى دمشق[1].

وقد ساهمت جميع فئات المجتمع في إقامة المساجد والجوامع، التي كثرت في المنطقة، ففي حلب أقيمت الجوامع[2]، وفي دمشق، وحماة وغيرها من مدن بلاد الشام، ففي دمشق اشتهر جامع التوبة لكنه احترق فعمره الأمير شاهين الشجاعي من ماله، كذلك اشتهر مسجد الكريمي بالقبيبات، الذي أنشأه كريم الدين عبد الكريم بن المعلم بن هبة الله وكيل الخاص السلطاني بالبلاد جميعها وذلك سنة ٧١٨ هـ /١٣١٨م[3]، وجامع الملاح الذي أنشأه شمس الدين غبريال ناظر الدواوين بدمشق خارج باب شرقي سنة ٧٠١ هـ /١٣٠١م، ويقال له مسجد ضرار بن الأزور[4]، وجامع الخليخاني: أنشأه نجم الدين بن خليخان من القبلة خارج باب كيسان، وخطب به شمس الدين بن قيم الجوزية، وجامع يبلغا وقد أنشأ سنة ٧٤٧هـ[5]، وجامع تنكز أنشأه الأمير تنكز سنة ٧١٧ هـ ظاهر باب النصر تجاه حكر السماق على نهر بانياس، وقد خطب فيه نجم الدين علي بن داود يحيى الحنفي المعروف

١- ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٠٧- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٦٩١ – المقفى الكبير، ج ٧، ص ١٨٠- العلبي: المرجع نفسه، ص ١٦٨.

٢- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٨٧- ابن خطيب الناصرية، ج ١، ورقة ٣٤٢-٣٥٧.

٣- النعيمي: الدارس، ج ١، ص ٣١٣- ج ٢، ص ٤١٦.

٤- النعيمي: الدارس، ج ٢، ص ٤٢٠-٤٢١- ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص ٢٣٧.

٥- النعيمي: الدارِ، ج ٢، ص ٤٢١-٤٢٣- دهمان: ولاة، ص ١٩٢.

بالقحفازي من مشاهير الفضلاء في دمشق، وقد حضر نائب السلطان والقراء والمنشدون[1].

إضافة إلى مسجد تربة أقشى - الميدان – السويقة، أقشى هو جمال الدين النجيبي الصالحي استادار الصالح، ولهذا المسجد جبهة من الجمر الأصفر الجيد فيها ثلاثة شبابيك إلى الطريق، وفوق هذا المسجد قبة حسنة تحتها محراب لطيف حجري وإلى جانبه الضريح[2].

ولم يقتصر اهتمام السلطان على إنشاء المساجد بل اهتم بتزيينها وترخيمها، وإرضاء للهيئات الدينية حتى يضمن موقفها المؤيد دائماً، فقد أقدم النائب تنكز سنة ٧٢٨ هـ /١٣٢٧م بترخيم الجامع الأموي - الحائط الشمالي - وذلك بعد أن كتب إلى السلطان يستأذنه بذلك، فجاء المرسوم بالأذن في عمارته، فعمر وعمل محراباً بين باب الزيادة ومقصورة الخطابة يضاهي محراب الصحابة، وقد تبرعت العامة في العمل في هذا المشروع، فكان يعمل فيه كل يوم أكثر من مائة رجل حتى كملت عمارة الجدار، وأعيدت طاقاته وسقوفه وذلك كله بهمة الشيخ تقي الدين بن مراجل، واستمرت عمارته مرة سنة حتى أعيدت في سنة ٧٢٩ هـ /١٣٢٨م، وفي سنة ٧٣٠ هـ /١٣٢٩م شرع في ترخيم الجانب الشرقي من الجامع ليشبه الجانب الغربي، وقد ظل العمل فيه حتى آخر هذه السنة[3].

إضافة إلى أننا نلحظ كثرة الزوايا والأربطة أيضاً، وسببها دخول أعداد كبيرة من الناس في سلك التصوف، ومن أهم العوامل المسببة لذلك هو الخطر المغولي، فعندما احتل المغول بغداد نزح كثير من العلماء من العاصمة العباسية بغداد متجهين غرباً، وكانت بلاد الشام هي المكان الطبيعي الذي يحضن هؤلاء، إضافة إلى نزوح عدد كبير من سكان المشرق، ومن دول أخرى غيرها، وقد أمد العمري هذه المقولة عندما قال:

«وبجميع الشام وجوه الخير كثيرة من المدارس، والخوانق، والربط، والزوايا للرجال والنساء والمارستانات وأوقاف البر والصدقات على اختلافها، وخصوصاً دمشق فإنه لا يطاول في ذلك باعها، ولا يحاول في هذه الغاية ارتفاعها»[4].

ومن هؤلاء الذين وردوا الشام وسلكوا طريق التصوف ركن الدين أحمد عبد المنعم

١- الصفدي: تحفة، ج ٢، ص ٢٣٩- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٨١- ابن خطيب الناصرية: ج ١، ورقة ٣٥٥- النعيمي: الدارس، ج ٢، ص ٤٢٥- ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص ٢٠٢ – دهمان: ولاة، ص ١٦٨.

٢- عبد الهادي: المصدر نفسه، ص ٢٠١.

٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٣٣-١٣٤- النعيمي: الدارس، ج ٢، ص ٣٩٥-٣٩٦.

٤- العمري: مسالك الأبصار، ص ٢٦-٢٧.

القزويني الطاوسي[1]، بدر الدين حسن بن إبراهيم بن دراع اليمني (ت ٧٤٨ هـ)[2]، عبد الله الذاكر من الروم (ت ٨١١ هـ)[3] عبد الله خليل الأسد أباذي نزيل بيت المقدس جاء من بغداد ت ٧٨٥ هـ[4]، سيف الدين محمود بن أبي بكر الأرموي القرايي[5].

من العوامل الأخرى التي سببت كثرة الربط والزوايا هو الحصول على أموال من التجار، إضافة إلى كسب الهيئات الدينية إلى جانب الحكومة، وقد حصل عدة مرات أن طلب السلاطين الفتاوى من العلماء والفقهاء لجمع الأموال للإنفاق على الحملات العسكرية، لذلك لم تألُ السلطة جاهدة لإنشاء الزوايا لهؤلاء العلماء والمشايخ فالظاهر بيبرس أشاد عدة زوايا إرضاء للشيخ خضر العدوي في حمص وحماة وبعلبك والمزة وغيرها من المدن[6].

كما أقام الأمير علاء الدين ايدغدي بن عبد الله الصالحي النجمي ت ٦٩٣ هـ /١٢٩٣م ربطاً كثيرة بالقدس، واقتدى بفعله أيضاً منجك اليوسفي نائب الشام من سنة ٧٧٠ هـ/١٣٦٨م حيث أقام زاوية بالكسوة وعمل لها سماطاً، كما أرضى أسعد نائب حماة الشيخ عبد الرحمن بن يوسف بن سحلول وبنى له خانقاه للصوفية خارج باب الجنان على نهر قويق[7].

ولم تقتصر إقامة هذه الزوايا على حكام بلاد الشام بل تعدتهم إلى حكام المغول، فالسلطان أوزبك خان بعث الشيخ علاء الدين النعمان (ولد سنة ٦٥٧هـ) إلى القدس وحمله أموال فعمر ببعضه خانقاه بالقدس[8].

وبالتالي نستطيع القول إن المتصوفة لم تقتصر على فئة معينة من الناس، بل دخل سلكها الجميع، كالشعراء والأدباء والعلماء. وقد ساعدت هذه الطرق في بث الروح الدينية لدى العامة، وإلى جعلها مرتبطة بالأرض والعادات والتقاليد أكثر مما مضى[9].

١- الذهبي: ذيول العبر، ص ٢٧.

٢- الدمشقي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٦.

٣- السخاوي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٧٦.

٤- ابن خطيب الناصرية، المصدر نفسه، ج ١ ورقة ٥٦٩- العسقلاني: الدرر، ج ٢، ص ٢٥٩.

٥- الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢٣١.

٦- ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٧٣-٢٧٤- اليونيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٥-٢٦٧- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٣٧٨- ابن شاكر: فوات، ج ٢، ص ٣٠٠- ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٠٢- المقريزي: المقفى الكبير، ج ٣، ص ٧٥٠-٧٥١.

٧- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٤٧- ابن طولون: إعلام، ص ٥٠- العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٣.

٨- الرمزي: تلفيق الأخبار، ج ٢، ص ٣٠.

٩- السبكي: طبقات، ج ٦، ص ٢٥١.

٤- إدعاء الكرامات وظهور البدع:

لقد سبب انشغال الحكومة بالأوضاع السياسية إلى ضعف الوازع الديني لدى بعض أفراد الطبقة العامة، الأمر الذي أدى إلى ظهور الكثير من البدع أو إلى ادعاء أشخاص بالمكاشفات والكرامات، فقد ذكرت المصادر أسماء كثيرة لهؤلاء، إضافة إلى أن بعضهم ادعى الألوهية. وكانت البدعة على ثلاثة أنواع، أحدها ما كان مباحاً كالتوسع في المآكل والمشارب والملابس، والثاني ما كان حسناً وهو كل مبتدع موافق لقواعد الشريعة غير مخالف لشيء منها كصلاة التراويح وبناء الربط والخانات وغير ذلك من أنواع السير، أما الثالث فهو ما كان مخالفاً للشرع أو ملزماً لمخالفة الشرع[١]. وهذا ما يتناوله البحث.

فنادراً ما نلحظ ترجمة لعالم أو فقيه إلا ويذكر أنه له كرامات ومكاشفات، فبعضهم كان يعلق في رقبته عظام الجمال، والآخر كان يزار ويتبرك به، والبعض الآخر يحلق ذقنه ويمشي حافياً ويكثر الحلف بالله وينطق أحياناً بالمغيبات فيقع كما قال، فيزداد صلاحه عند الناس[٢].

وأهم المشايخ الذين ظهرت لهم كرامات: ابن قوام البالسي (ت ٦٥٨ هـ)[٣]، أبو إسحاق إبراهيم ابن الخطيب المقدسي أيضاً[٤]، الشيخ أبو بكر بن فتيان الشطي (ت ٦٧٢هـ)[٥]، وقد ظهر لبعضهم كرامات واضحة كالسيد عبد الحافز (ت ٦٩٦ هـ) فقد كان له ولد اسمه داود من أصحاب الكرامات[٦].

ومن كراماته أن قرية شرفات كان بها قليل من النصارى، وكانوا يعصرون الخمور ويبيعونها للفساق من المسلمين، فصعب ذلك على داود ودعا عليهم إلى الله فاستجاب له وكانوا كلما عصروا الخمور انقلبت خلا وقيل ماء[٧].

وقد غالى الناس في محبة الشيخ إبراهيم بن سعيد الشاغوري (ت ٦٨٠ هـ/١٢٨١م) وكانوا

١- السبكي: طبقات الشافعية، ج ٥، ص ١٠٥.

٢- ابن حبيب: تذكرة، ج ٢، ص ١٦٦- العسقلاني: الدرر، ج ٢، ص ٧٣- ج ٤، ص ٣٦٨- اليافعي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٠٦- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٥٠، ج ٣، ص ٤٨.

٣- الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٢٥٠.

٤- الذهبي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٨٤.

٥- ابن شداد: تاريخ، ص ٩٩.

٦- العليمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٧-١٤٨.

٧- العليمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٧-١٤٨.

يذكرون له مكاشفات وكرامات، وكل ذلك خرافات من خرافات العوام، ولشدة حب العامة له عملوا على قبره لما توفي حجارة منقوشة وسقفاً مقرنصاً بالدهان وأنواعه، كما عملوا عليه مقصورة وأبواباً، وغالى الناس فيه مغالاة زائدة[1].

كما اتبع جماعة من الفلاحين والشباب المنتمين إلى طريقة أحمد بن الرفاعي الشيخ علي القطناني (ت٧٤٧ هـ/١٣٤٦م) واتبعوه بالزيارة والتبرك، وكان له أصحاب يظهرون إشارة باطلة وأحوالاً مفتعلة، وهذا ما كان ينقم عليه بسببه[2].

وقد حارب ابن تيمية بدعاً كثيرة ففي سنة ٧٠٤ هـ/١٣٠٤م توجه مع جماعة إلى مسجد النارنج بدمشق وأحضر جماعة من الحجارين، وقطع صخرة هناك كان الناس يزورونها وينذرون لها النذور، وكان لهم فيها أقاويل كثيرة فأزالها، وقد حصل بين ابن تيمية وأهل دمشق نزاع بسبب هذه الصخرة، فقد كانوا يدعون أن فيها أثر قدم النبي ويتغالون في أمرها، ففسد كثير من الرجال والنساء بذلك[3].

ومن الجدير بالذكر أن بعض العامة أدعت الألوهية، ففي سنة ٧١٧ هـ /١٣١٧م قام رجل من جبلة فأدعى أنه المهدي مرة، وعلي مرة أخرى، وان دين النصرانية حق، وان الملائكة تنصره، وأن الخمر حلال، وأن تناسخ الأرواح حق وأن العالم قديم، والبعث بعد الموت باطل، وأن الصلوات خمس وقد ثار معه خلق من الجهلة وصدقوه وأصبحوا أعوانه فبلغوا ثلاثة آلاف، وعاثوا الفساد بالساحل واستباحوا جبلة ورفعوا أصواتهم، ووعدهم بأن يملكوا البلاد، إذ قسمها بينهم، وعين لكل واحد حصته، وأمرهم بالخروج إليها، وأعطاهم ورق الزيتون، وكان يقول لهم، استظهروا فإنها كالأوامر فإذا خرج أحدهم إلى بلد أحضره أميرها فيقول له إن الإمام المهدي أعطاني هذا البلد، فيقول له أين الأمر؟ فيخرج ورق الزيتون، يضرب ويحبس، غير أن الحكومة لم تطق صبراً بما كانوا يقومون به فحاربتهم حتى استطاعت قتل طاغيتهم[4]. وقد ظهر سنة ٧٨٤ هـ /١٣٨٢م بدمشق أن الشافعية والمالكية والحنابلة قد

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٩٨.

٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٢٠-٢٢١.

٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣٤- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٨-٩ المقفى الكبير، ج ١، انظر ترجمة ابن تيمية – العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٥٧.

٤- الذهبي: ذيول العبر، ص ٩١- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٠- ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص ٨٠- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ١٧٨- ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج ٦، ص ٤٣.

أظهروا البدع ونحو ذلك[1]. وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على انشغال أفراد الحكومة بإعادة الأوضاع الأمنية إلى المنطقة عقب كل غزوة مغولية، إضافة إلى ضعف الوعي الديني عند بعض أفردا العامة، وعدم اكتمال الشعور القومي الذي أدى إلى انغماس بعض الأفراد بالبدع، والتمسك بها والدفاع عنها.

٥- هدم المنشآت الدينية:

- إن خراب المنشآت الدينية شمل المناطق التي تعرضت مباشرة للغزو المغولي، فالجزيرة تعرضت منشآتها للهدم فقد خربوا جامع حران وأخذوا الأخشاب من سقوفه، كذلك اصطحب المغول ما تبقى من آثاره معهم، كما خربوا مشهد علي في سنجار[2].

أما في حلب وأعمالها فقد شمل الخراب الجوامع والمساجد، فعند دخول هولاكو المدينة خرب المسجد الجامع الذي عمره فيما بعد سنقر نائب حلب وفرغ منه سنة ٦٨٤ هـ /١٣٨٥م، وكان إحراقه قد تم على يد نائب سيس، كذلك هدموا مسجد النصاري الذي يضم قبر عبد الله النصاري بداخله[3].

وقد تعرضت جوامع ومساجد المنطقة للخراب والهدم أثناء غزوة غازان، فقد هدم مسجد التوبة في العقيبة، ومسجد الصابون، ودار الحديث الأشرفية التي عمرها فيما بعد الشيخ زين الدين الفارقي وقبالتها على العادلية الصغيرة ثم على العادلية الكبيرة، كذلك تضرر مسجد السدية، ودار الحديث النورية. كما نهبت ونقضت أخشابها وقلع ما فيها من الرخام، وأخذ ما فيها من الأثاث وبيعت بأقل الأثمان، حتى إنه قلعت في أثناء هذه الغزوة شبابيك التربة بالصالحية وأخذت أبوابها، ولا بد أن يكون الجامع في قلعة دمشق قد تأثر حيث إن المغول نصبوا المجانيق على الجامع، فعندما أراد أرجواش ضرب المنجنيق ألقى جنوده النار عليه فأحرق الجامع[4].

١- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٨٩.

٢- ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج ٣، ق ١، ص ٦٣-١٥٥- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ١٨٨- عاشور: العلاقات، ص ٩٧.

٣- المنصوري: التحفة، ص ٩٥- اليونيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٥- اليافعي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٠- ابن حبيب: تذكرة، ج ١، ص ٥٩- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٨٥٥- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ١٨- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٢- العيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ٢٥٤- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٦٤-٨٩- كرد علي: خطط، ج ٢، ص ١١٧.

٤- ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر، ص ٣١-٤٠ – النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٩٦- الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢٠٣- الصفدي: تحفة، ج ٢، ص ٢٠٤- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٧٣٠ – المقريزي: سلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩٣- المقريزي:

وسار تيمور سيرة من سبقه من أسلافه في المنطقة من الخراب والدمار، ولم يكتف بما ارتكبه من مجازر جماعية في بيوت الله عند دخوله إليها، وإنما قام بهدمها ونهبها، إضافة إلى هدم المدارس والزوايا والربط وغيرها من المنشآت الدينية ففي مدينة حلب، خرب جنوده الجوامع[1]، وقد ساوت مدينة حماة مدن الشام الأخرى في خراب منشآتها الدينية وان لم تذكر المصادر بالتحديد أسماء هذه المنشآت، غير أن هجوم ابن تيمورلنك عليها وإشعاله النار فيها لا بد أن يترك أثراً على المدينة[2].

وكانت مدينة دمشق أكثر المدن تضرراً من غزوة تيمورلنك، فقد تعرض مسجد المزاز في الشاغور إلى دمار كامل[3]، إضافة إلى جامع بني أمية أكثر جوامع دمشق أصالة وعراقة وجمالاً، فقد سقطت سقوفه بعد أن سال رصاصه من الحريق، وزالت أبوابه، وتلف رخامه، ولم يبق غير جداره قائمة، ومئذنة العروس، رغم أنها كانت من الخشب ويظهر أنها نفس منارة عيسى نفسها، وكان الذي أضرم النار في المسجد الفرق الخراسانية في جيش تيمورلنك، وهذه الفرق كانت أشد عداء الأهل الشام عموماً وللأمويين خصوصاً، وقد برر المؤرخون عمله بأنه قضاء وقدر ودليلهم على ذلك ما تظاهر به شاه ملك ورجاله بإطفاء النار في الجامع الأموي، ومع ذلك انهارت المنارة الشرقية كلياً وكانت مبنية من الحجر، وظل المسجد على وعضه هذا حتى أمر المؤيد شيخ الخاصكي بعمارته مع ما تهدم قبله[4]. بينما لم يتجاوز تيمورلنك في غزوته هذه حدود مدينة دمشق، وبالتالي فإن المناطق الجنوبية لم تتعرض لأي أذى من الغزاة، فقد كانت مدن سورية بالتحديد هي التي تعرضت للغزو المباشر والضرر الذي شمل المنطقة، وكان المجتمع الشامي أكثر المجتمعات تعرضاً للقتل والسبي والأسر والنهب والاستباحات الأخلاقية والبغاء، فكان تأثره كبيراً بنتائج الغزوات المتباعدة زمنياً.

المقفى، ج ٢، ص ١٦- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٧- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ٢٩٤ – النعيمي: الدارس، ج ١، ص ٢٦- كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٣٥- عاشور: العلاقات، ص ١٥٢-١٥٣.

١- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٣٥٣- السخاوي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٨ – كرد علي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٢- لامب: تيمورلنك، ص ١٢٨.

٢- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٦- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٢٥-٢٢٦.

٣- ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص ٢٥٣.

٤- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٣-١٠٥١ – ابن خلدون: التعريف، ص ٣٧٤- ابن طولون: إعلام، ص ٥٧- ابن عربشاه: المصدر نفسه، ص ٢٨٥- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٣- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٤٥-٢٤٦- الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٨٩- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٦- العلبي: تيمورلنك ١٨٦-١٨٧- والتر: لقاء ابن خلدون، ص ١٥٧.